
فجر
الكرونونيت
رواية مستقبلية عن الماضي
ماجد الحيدر
أمل الجديدة
طباعة - نشر - توزيع

فجر الكرونونيت

ماجد الحيدر

فجر الكرونونيت

رواية مستقبلية عن الماضي

الفصل الأول

نواقيس الخطر

١

- "مايك"

دخلت عليه ســـــكرتيرته دون أن تطرق الباب. كان معتاداً على هذا، مثلما اعتاد أن تناديه باسمه الأول.

- "مايك، أظن أن عليك ان تقرأ هذا".

ورمت مجلة على فسحة خالية في منضدته المكتظة.

- "ما هذه؟"

- "مجلة من الشرق الاوسط".

- "إنها باللغة العربية، أم تراها بالفارسية؟ اليس كذلك؟"

- "أعرف إلام تلمّح. وضعت لك داخلها ترجمة لِما أريدك أن تقرأه".

- "هممم أهي مقالة أم قصـــة قصـــيرة؟ (وقرأ العنوان) وداعا لعصـــر الانترنت، أهلاً بعصر الكرونونيت!" هل للأمر علاقة بعملنا؟"

- "ستعرف عندما تنتهي من قراءتها".

- "حسناً، ضعيها جانباً، ربما قرأتُها حين أفرغ".

- "يُستحسن أن تفعل، وسريعاً"!

٢

في ساعة مبكرة من فجر اليوم التالي رنّ هاتفه.

- "ماري؟ ما الأمر؟"
- "اسمع يا مايك. ربما كان الأمر خطيرا. أين أنت الآن؟"
- "في البيت القديم".
- "يجدر بك أن تنتقل الى مكان أكثر أمانا".
- "لماذا؟"
- "هل قرأتَ المقالة؟"
- "أية مقالة؟"
- "التي طلبتُ منك أن تقرأها. المجلة الشرق الأوسطية إياها".
- "أية مجلة؟ آه تذكرت. أخبريني يا ماري، أنت تتصـــــلين بي في الساعة.. لحظة.. في الساعة الرابعة فجرا لتطلبي مني أن أغادر بيتي ثم تسأليني عن قصة أو مقالة في مجلة ما؟"
- " لم تقرأها إذن؟"
- "كلا بالطبع. لقد نسيتُها على المكتب".
- "آه يا إلهي! على المكتب؟ هذا يعني بأنهم سـيعرفون بأنك اطّلعتَ عليها"!
- "من هم؟"
- "لا أعرف بالضبط".
- "توقفي يا ماري. أنتِ تربكينني. ما الأمر؟"

- "الرجل الذي كتب المقالة – المقالة التي تدور حول اختراعك – لقد وجدوه مذبوحاً في بيته، هناك في الشرق الـ.."

- "لحظة يا ماري، هل تظنين أن للأمر علاقةً بالمشروع؟"

- "بالتأكيد. يجدر بك أن تســـرع. توجه الى المكان الذي قلتَ إنك هيأتَه لمثل هذه الظروف. لا تذكره لي حتى أنا. ربما ينتزعون عنوانه مني. ولا تستخدم رقمك هذا، ولا سيارتك. خذ سيارة أجرة وغادر البيت على الفور"!

- "تمهلي.. وماذا عن المقالة؟ كيف سأقرؤها؟"

- "وهل هذا ســـؤال من مثلك؟. لقد امتلأت بها مواقع الإنترنت منذ ساعات"!

٣

لم يكن مايك بغافل عن أهمية مشـــروع كهذا. لقد فكر كثيراً بالمجد العظيم الذي سيحققه، وبالمنافسة الشرسة التي سيلقاها، لكنه لم يكن يتصور بأنه سيخلق له أعداءً بهذه الخطورة –أعداءً يذبحون من يتحدث عنه! ولهذا اكتفى (شأن كل مشاريعه) بأن أحاط الأمر بدرجة معقولة من السرية والكتمان تتيح له العمل بهدوء بعيداً عن ضجيج الصحافة ومكائد المنافسين. ولكن الى أي حد تمكنوا من الولوج الى أسراره، عدا اسمه الذي صار متداولاً منذ فترة – ربما بسبب بعض ثرثراته غير المحسوبة! والى أين وصلوا في معرفة تفاصيله؟ ومن هي الجهة التي كان لها المصلحة في قتل ذلك الكاتب؟

أسئلة كثيرة ازدحمت في رأسه وهو في المقعد الخلفي لسيارة الأجرة التي كانت تنهب به الأرض في شوارع المدينة شبه الخالية.

فجأة، وإذ أصبح قريباً من مخبئه، خطر في باله شيء: ماذا لو كان هذا السائق...؟

- "هل لك أن تتوقف قليلاً عند هذه الاستدارة. أحتاج الى إفراغ مثانتي".

أبطأ السائق قليلا، وقبل أن يتوقف تماما فتح مايك الباب ورمى للسائق بحفنة نقود وقفز من السيارة وأخذ يركض بأقصى سرعته.

وحانت منه التفاتة الى الوراء فرأى سيارتين أخريين تتوقفان خلف السيارة الأولى ويترجل منهما عدد من الأشخاص.

- "توقف، توقف! سنطلق النار!"

ودوت رصـاصـات متتابعة انطلقت من مسـدسـات الرجال الراكضـين خلفه. وشــعر بأزيز بعضــها وهي تمر من قربه. لكنه اســتفاد من لياقته البدنية ومن معرفته بهذه الشــوارع الخلفية فدلف الى زقاق مظلم ضــيق، وتخلص من واحدة من فردتي حذائه دون أن يتوقف ورماها في زقاق يتفرع الى اليمين، ثم أمسك بالفردة الثانية وانطلق بأقصـى سرعته سالكاً الزقاق الأيســر بعد أن شــعر بأن هذا ســيربكهم قليلا وأن وقع أقدامه لن يرشدهم اليه.

ولم يتوقف عن الجري حتى بلغ المتجر القديم وأخرج هاتفه المحمول وضـــغط على الشــفرة الســرية فانفتح الباب وألقى نفســه داخله ثم انغلق سريعاً. وسرعان ما وجد نفسه في الممر المؤدي الى ملاذه الآمن.

٤

- "لم يقصدوا قتلي، لو أرادوا ذلك لدخلوا علي في البيت وفعلوها بكل سهولة. لكن من هم؟ منافسون تجاريون؟ شركات ستتضرر من الاختراع؟ أم جهات ترفضه لأسباب أخرى؟ وماذا يريدون؟ وما معنى تلك المكالمة نصف الليلية؟"

تتابعت الأفكار والأسئلة التي اشتبكت في ذهنه وهو يحكم اغلاق أبواب الممرات المحصنة ويتأكد من منظومة الأمان والحماية من الاختراق والتسلل. فك ازرار معطفه فاعترته قشعريرة عابرة واستلقى مبهور الأنفاس على الأريكة-السرير التي اتخذت مكانها في أقصى يمين المخبأ الكبير المزدحم بالآلات والحواسيب ولوحات التحكم التي تصدر بمجموعها أزيزا خافتا أدمنه من سنوات.

على وقع هذا الأزيز كثيراً ما استلقى على الأريكة وهو ينظر الى السقف غارقاً في تفكير عميق يقوده في بعض الأحيان الى منطقة بين اليقظة والنوم حيث تختلط رؤى الأرقام والمعادلات والخرائط الالكترونية بمشاهد من طفولته وشبابه.

وتذكر العنوان التقريبي لتلك المقالة التي أودت بكاتبها، فشرع على الفور بالبحث عنها في محركات البحث، لكنه قرر بأن عليه أن يجري أولا اتصالاً هاماً. أدار أرقام هاتفه المشفر بطريقة يظنها عصية على الاختراق (أليس هذا من صلب اختصاصه؟) وكتب لزوجته التي تقضي إجازتها مع ذويها في الشرق الأقصى:

- "اســـمعي يا حبيبتي. خذي أباك وأمك والطفلين الى المكان الذي صحبتكم اليه في الصيف الماضي".

- "الى تلك الجزيرة؟"

- "نعم. هناك ستجدين كل ما يلزمكم لقضاء عدة أشهر دون الحاجة الى الاتصال بالعالم الخارجي. اقطعي كل اتصالاتكم بالإنترنت ولا تردي على أي مكالمة أو رسالة مني إلا إذا سبقتها كلمة السر المتفق عليها".

- "ولكن ما الأمر؟"

- "ســـتفهمين كل شـــيء فيما بعد. وداعا حبيبتي. امســـحي هذه المحادثة فوراً"!

- "مهلاً يا مايك، ماذا لو..."

وأغلق الهاتف ثم ألقاه على المنضدة وأخذ يردد مع نفسه وكأنه يطمئن نفسه ويمنحها جرعة إضافية من العزيمة:

- "حلم ويلز، حلم ويلز. كلمة ســـر أم مفتاح مســـتقبل أم بوابة للهلاك!؟"

٥

كما توقعت ماري كانت كل المواقع الاخبارية وصفحات التواصل الاجتماعي مشغولة بمقتل ذلك الكاتب من الشرق الأوسط وبمقالته التي أحدثت كل هذه العاصفة. اختار أحد المواقع التي يثق برصانتها وراح يقرأ إحدى ترجماتها الى الإنكليزية:

"وداعا لعصر الانترنت، أهلاً بعصر الكرونونيت!

"يبدو أن فكرة السفر عبر الزمن حققت أول فرصة عملية لها على أرض الواقع.. ذلك أن فريقا بحثيا من مؤسسة (ك) للفيزياء والتكنولوجيا، بقيادة (ج. م)، أقدم على خطوة جديدة من نوعها تماماً في هذا المجال.

ففي الدراسة، التي نشرت في دورية (س. ز.) أعلن الفريق البحثي تمكنه من عكس اتجاه الزمن في حاسوب كمي عن طريق عكس حالة من الفوضى إلى الانتظام مرة أخرى.

الخبر(الذي يمكن الاطلاع على تفاصيله وتعقيداته الفيزيائية والرياضية في أكثر من مكان) مهم جداً ويعد فتحاً في عالم الفيزياء لكنه لا يشبه بالضبط ما دأبتُ على التفكير فيه. فطريقة (السفر) حسب وجهة نظري لن تكون شبيهة بقصص الخيال العلمي أي بنقل الإنسان في آلةٍ ما عبر الماضي والحاضر بل بطريقة تستفيد من جمع عبقري بين الفيزياء الحديثة وتقنيات النانو وتكنولوجيا المعلومات

والذكاء الاصـــطناعي لإعادة تجميع الموجات الكهرومغناطيســـية أو التغييرات الفيزيـائيـة التي لا بد أن ترافق أي حركـة في الكون من أجل جعلنا نطلع بالصـــورة والصـــوت على أمور جرت في احداثيات زمانية ومكانية معينـة وفي الماضـــي فقط. ولم لا؟ فأمور مثل الانترنت بل وحتى الهاتف والتلفزيون والطائرة كانت حتى وقت قريب (لا يعد شـــيئا بتاريخ بالإنسانية) ضرباً من الشطحات الخيالية"

- "أوه. كانه قرأ أفكاري!" وواصل القراءة:

"ســـتجلس إذن الى جهازك وتكتب لـه خط الطول والعرض والزمن الذي تريده وتتفرج على كل ما حدث في الزمان والمكان المحددين!

نعم يا سادتي، انه الكرونونيت!"

فتح عينيه على اتساعهما وهتف:

- "يا إلهي! كيف عرف الاسم؟"

"لكنني أحذركم من أن تتفاجؤوا عندما يخرج لكم "علماء أجلاء" في هذا الشـرق الأظلم ليدحضـوا الفكرة ويشـتموا علماء الغرب ، ثم يقوم آخرون بعد عدة ســنوات (عندما لا يعود بمقدورهم العناد ويشـرعون باســتيراد تقنيات الكرونونيت من الغرب نفســه) بكتابة المقالات وعقد المؤتمرات التي تؤكد بأن الكرونونيت مذكور في كتب أسلافهم!"

ابتســم مايك من هذه الســخرية وشــعر بمزيد من الإثارة فاعتدل في جلسته وواصل القراءة بنهمٍ شديد:

"إن "آلـة الزمن" التي أتخيّلها، وأتمنّاها، وأحســـدُ الأجيال القادمـة عليها، ليست كآلات الزمن التي تخيلها الرسامون والمخرجون وصـناع

أفلام الكارتون والروائيون – ابتداءً بخالد الذكر هـ. جـ. ويلز.

إنها لن تكون بأي حال من الأحوال نوعاً من المركبات المعقدة بعشرات الأزرار والأضواء وأجهزة القياس والعدادات، يركبها رجل مغامر ويدوس على بعض الأزرار ويحرك مبدّل السرعات فتنطلق بسرعة خيالية عائدة الى زمان سحيق أو قافزة الى زمان قادم لتتوقف عند سنة يُظهرها عدّاد السنين وينزل منها سائقها والدنيا تدور به ليجد نفسه في غابة من الديناصورات أو مدينة من مدن المستقبل ناسها طوال الرؤوس والآذان، جلودهم خضراء، لا تفرق فيهم بين الرجال والنساء، يرطنون بلغة بين الغمغمة والإشارة.

أن قوانين الفيزياء (وخصوصاً النسبية الخاصة التي تربط تباطؤ الزمن مع السرعات العالية) قد تسمح بذلك نظرياً لكن سفراً مثل هذا يحتاج الى الوصول الى سرعات تقارب سرعة الضوء. وحتى لو تجاوزنا كل الموانع النظرية والمفارقات المنطقية فإن آلة الزمن المفترضة تحتاج الى طاقة هائلة لتشغيلها، طاقة تتجاوز بكثير الطاقة النووية. إنها ببساطة تحتاج الى الطاقة المنبعثة من نجم متفجر هائل والى تقدم حضاري لا يقاس بعشرات أو مئات الأعوام.. المسألة إذن شبه مستحيلة لا الآن ولا في المستقبل القريب وتكاد تبدو غير منطقية (إذا كان ثمة منطق في دنيانا) رغم أن الكثير من حكام الشرق الأوسط تمتعوا بقدرة عظيمة على السفر عبر الزمن لمعرفة النتائج الدقيقة لأية انتخابات ينوون تنظيمها!"

- "نكتة أخرى! موتك خسارة أيها البائس!"

"لكن السفر الى الماضي شيء مختلف تماماً. إنه يشتمل ضمناً على العديد من المفارقات المنطقية المضحكة. ألم تسمعوا مثلاً بمفارقة الجد والحفيد؟ حين تعود الى الماضي وتلتقي بجدك وتدخل معه في مشاجرة من أجل الفوز بإحدى الجميلات (وقد تكون جدتك الصبية لا غيرها) ثم يصل بك الغضب إلى حد أن ترفع مسدسك و.. طاح طاح طاخ! يرتمي جدك قتيلاً قبل أن يتزوج جدتك وينجبا والدك الذي سينجبك! عندها لن يكون والدك ولن تكون أنت ولن يكون هناك وجود لا لك ولا لمركبتك الزمنية العتيدة!

ربما جادل بعض الفلاسفة والعلماء بأن السفر الى الماضي ممكن هو الآخر نظرياً وبأن هذه المفارقة وغيرها يمكن حلها أو إهمالها بطرق عديدة لا مجال للخوض فيها. حسناً. فلنقل إنه ممكن نظريا على الأقل، على اعتبار أن كل حدث هو حركة فيزيائية تترك في الكون أثرا يمكن رصده وإعادة تركيبه ومحاكاته، دون أن يمكن تغييره بالطبع، فهو أولا قد حدث وانقضى وبنيت عليه ملايين من الأحداث المتعاقبة وهو ثانياً تاريخنا المجيد الذي لا يمكن أن "تلعب به!"

إن آلة الزمن التي أنتظر ولادتها في وقت أقرب مما تتصورون، والتي سأدعوها بالكرونونيت (من الكرونو بمعنى الزمن +نيت بمعني الشبكة) سوف تمكننا من رؤية وسماع كل حدث مرَّ قبل هذه اللحظة وكأننا نشاهد فلماً تسجيليا أو نقلاً مباشراً من أي مكان وزمان في الماضي ابتداءً من المشاهد الحميمة بين أنطونيو وكليوباترا وانتهاءً بآخر المداولات السرية التي يجريها "الكبار" لتحديد مصائرنا!"

- "كأنني سمعت هذه الكلمات، أو تلفظتها بنفسي ذات يوم"

"لن نعود عندها بحاجة للتاريخ وكتبه ومعاهده ونظرياته: تكفيك كبسة زر أو ايعاز شفوي للانتقال الى زمان ومكان في الماضي لتتفرج وتسمع مجانا!

كل شيء سيكشف بالتفصيل الممل والفيديو الذي لا يتطرق اليه شك: من خلافات المتنازعين على وراثة المُلك الى ما قالته زوجة الابن بغياب حماتها!

أبطال التاريخ وقديسوه، هم والخطوط الحمراء التي تحيط بهم سيبدون على حقيقتهم المجرّدة!

سنعرف مثلاً أسباب صراع المذاهب الدينية التي سفحت فيها بحار من الدماء، سنعرف العدد الدقيق لبراميل النفط المسروقة في بلادنا وكل ما دار في كواليس الساسة الأعزاء من صفقات واتفاقات، وسيتمتع أصحاب القلوب القوية بمشاهدة اللحظات الأخيرة للزعماء والمشاهير وهم يُصلبون أو يحرَقون أو يشنقون أو يقطّعون أو يسحلون! وسوف يتم (ترشيق) كل الجامعات والمراكز البحثية في العالم عن طريق إلغاء أقسام التاريخ، قديمه وحديثه.

نعم يا سادتي.. أما إذا كنا رومانسيين فسوف نستعيد في أواخر أيامنا، طعم أولى قبلاتنا وصور الوجوه الحبيبة التي فتحنا أعيننا عليها وتنويمات أمهاتنا. وسنسمع بآذاننا "التي سيأكلها الدود" آيات الشجاعة والبطولة التي يلصقونها بهذا وذاك، وسنرى بأم أعيننا –يا للفضيحة!– كل اللحظات الحميمة التي دارت بين أجدادنا وجداتنا!

ولن يعود رجال الأمن والمحققون بحاجة لتعليق المتهمين بالمراوح السقفية أو استخدام الصعقات الكهربائية والجلد بالأسلاك المعدنية لأجل انتزاع الاعترافات!

هذا "غِيض من فِيض" فأنا أعترف بعجزي عن تخيّل (ناهيك عن تعداد) ما ستحدثه هذه الآلة المرتقبة من ثورات وأعاجيب.

الموضوع إذن خطير جداً، صدقوني، بل ربما سيكون أخطر ما يتوصل اليه العقل البشري الجبار، وستكون له (إن سمح به قادة العالم) تداعيات هائلة على أخلاقنا، على نمط حياتنا، على منظوماتنا القيمية والاجتماعية والدينية وعلاقاتنا بعضنا ببعض. لكنني متشائم وخائف: أشعر بأنني لن أعيش حتى أرى هذا الشيء بعيني، غير أني أنصحك يا سعيد الحظ الذي سيشهد بزوغ فجره: كن حذرا يا عزيزي؛ ما تفعله اليوم في سرّك ستعرفه البشرية كلها غداً، فلا تتذاكى أو تتحامق ولا تلعب بذيلك ولا تكذب على امرأتك ولا مديرك في العمل ولا شعبك.. الكرونونيت سيفضحك عاجلاً أم آجلاً ويصبح اسمك على كل لسان. وقد أعذر من أنذر!"

٦

كان وقع المقالة صـــاعقا عليه، فباســـتثناء بعض التفاصـــيل الدقيقة واللهجة الأدبية الســاخرة والإشــارات المحلية التي لم يفهمها، كان الكاتب يتحدث تماماً عن "المشـروع".. مشـروعه الذي عكف على إنجازه بسـرية تامة طوال السنوات الأخيرة.

- "أيعقل أن يكون الموضـــــوع كله (بما فيه خبر مقتل الكاتب) فخا محكما للإيقاع به؟ من هم المتضـــررون من هذا المشــروع؟ ماذا يعرفون عن تفاصـيله؟ هل اخطأ في حسـاب رد فعلهم المتوقع؟ ما المخاطر التي تهدد حياته وحياة المقربين إليه؟ مهما كان الأمر فينبغي عليه أن يســرع. ربما وصلوا اليه قبل أن يرى النور!"

- "نعم يا بني، ينبغي أن تسرع".

قال جده الذي انبثق من اللامكان.

- "جدي؟ إنك تأتي دائماً في الوقت المناسب. ما أحوجني إليك"
- "وأنا لم أخلف وعدي يوماً. ألم أقل لك يومها بأنني لن أخذلك أبداً؟
- "بلى يا جدي، ولم تفعل".
- "والآن يا صغيري، كيف سنخرج من هذا المأزق؟"
- "لا أعرف بالضــبط. لقد أخذتني المفاجأة على حين غرة. أنا حائر تماماً. لا أعرف ما الذي يدعو أحداً لقتلي. لا أعرف من له مصــلحة في ذلك".

- "أحقاً لا تعرف؟"

- "حســـناً، لقد خطر في بالي أنهم قد يكونون منافســـين محتملين، أشخاصاً أو شركاتٍ يخشون من تضرر مصالحهم الاقتصادية. لكنني عدلت عن هذه الفكرة. إن لديهم أســـاليب وطرق أخرى للدفاع عن مصالحهم، أليس كذلك؟"

- "في حالتك هذه، أنت محق على الأرجح، رغم أن "زملائك" من أباطرة المال والأعمال لا يتوانون في الغالب عن فعل أي شـيء من أجل المزيد من المال! هههه. حسناً، استمر"

- "سأتجاهل تلميحك هذا. يخيل لي أن التهديد قادم من جهات أعلى وأقوى نفوذاً"

- "جهات تتحكم بالعالم مثلاً؟"

- "ربما"

- "ليس ربما بل بالتأكيد. ســـدنة العالم لن يســـمحوا لك بتدمير الأكاذيب الكبرى التي أنفقوا أموالهم وعقولهم عبر القرون في ترســـيخها. لقد بدأت معهم معركة لا يعرف أحد نهايتها، ولا أظنهم ســيقفون مكتوفي الأيدي! احذر يا ولد! احذر يا ولد!"

كان وجه مايك يزداد شـــحوباً، وأحس بارتخاء ســـاقيه، بينما تردد الصدى في القاعة الفسيحة ثم غاب شيئاً فشيئاً.

٧

وكان الحدس في محله، ففي مكان ما وسط سلسة جبال شاهقة، وفي قرية معزولة لا تثير انتباه أحد، كانت هناك ســلســـلة اجتماعات خطيرة تعقد في قصـــر مؤتمرات محصـــن عملاق تحت الأرض، يحرســه فوق الأرض المئات من رجال الأمن المدججين بالســلاح وتراقبه من الســماء العديد من الأقمار الصــــناعية وطائرات المراقبة المحلقة على ارتفاعات مختلفة. كان اجتماعاً لم يشهد له التاريخ مثيلا من قبل.

الجو مشـــحون ومتوتر، لكنه ليس كالتوتر الذي يرافق اجتماعات الفرقاء الذين تتضارب مصالحهم. كلا، كان هذا توتراً من نوع آخر، توتراً يثيره خوف مشترك يجمعهم بروح من التضامن غير المسبوق. خوف من كارثة وشيكة قد تطيح بهم جميعا في غمضة عين!

- "أيها السيدات والسادة" قال رئيس الدولة المضيفة "ليس لدينا الكثير من الوقت ولذلك سأدخل في الموضوع دون مقدمات ومجاملات وعبارات ترحيب. أنتم تعرفون الخطر الداهم الذي دعانا لعقد هذا الاجتماع الخطير. لقد وزعنا على حضـــراتكم برفقة الدعوات تقريراً مفصـــلاً عن طبيعة هذا المشـــروع المدمر، لكن لا بأس بعرض موجز يذكِّركم بأهم النقاط الرئيسية. منذ عدة أشهر بدأنا، بالتعاون مع وكالات المخابرات في عدد من الدول الصـــديقة، في تجميع بعض الخيوط عن مؤامرة كبرى تحاك ضــد الانســانية، مؤامرة يراد بها نســف كل تاريخنا البشــري وكل انجازاتنا على مر العصــور. إنه، كما تعلمون، مشــروع الاختراع المدمر

الذي أطلق عليه اسم الكرونونيت"

- إنعم، إنها مؤامرة بالتأكيد، مؤامرة كبرى ضـــد الأخلاق والدين والثوابت القومية"

هتف أحد موفدي الشرق الأوسط دون أن يستأذن بالحديث. ولم يمنعه من القيام وإطلاق الهتافات المعهودة في بلاده "يسقط... يعيش.. الخزي والعار.." سوى استمرار الرئيس في خطابه:

- "أنت محق، هي كذلك يا ســيدي. ما أريد قوله هو إننا توصـــلنا مؤخرا الى خطط ستقودنا، كما نأمل الى واضـعي ومنفذي هذه المؤامرة الشريرة. سيداتي سادتي، إننا في سباق مع الزمن؛ فأما أن نصل الى مصـدر هذا التهديد الخطير قبل تنفيذه، وأما أن يصـبح مصـيرنا، كأمم راقية متحضرة، في أدراج الرياح.

إن علينا جميعاً– قادة ورؤساء ورجال أعمال وعسكريين وعلماء– أن نعمل بروح الفريق الواحد وأن نتناسى، ولو مؤقتاً، كل خلافاتنا السابقة.

إن هذه المؤامرة البشـــعة التي يريد الأشـــرار تقديمها على أنها مجرد اختراع جديد من تلك الاختراعات التي نراها كل يوم ستنسف، إن تحققت أهدافها، كل ما بنينا خلال عشرات القرون من عمر حضارتنا الإنسانية. نعم أيها السـيدات والسـادة، إنني أدعوكم الى عدم الاسـتهانة بالعواقب الكارثية المدمرة التي تنتظر كوكبنا من جراء هذا الكرونونيت"

لم تســتمر كلمة الرئيس طويلاً. وبعد بعض الكلمات البروتوكولية الإنشـــائية تدخل الرئيس ثانية ليقطع الطريق على مزيد من إضـــاعة الوقت:

– "أيها السيدات والسادة. شكراً لكم جميعاً. والآن سأترك الكلمة للسيد مســتشــار الأمن القومي. إنكم جميعاً تعرفون الســيد روبرت جونســون وتعرفون ما بذل ويبذل من جهود للحفاظ على أمن بلادنا وأمن حلفائنا وأمن العالم برمته. ولقد وقع عليه اختياري ليكون المســـؤول الأول عن جهودنا لمواجهة هذا الخطر المحدق وأنا على يقين بأنكم ســـوف تولونه كل الثقة في إدارة هذه المعركة العالمية العظيمة. سيد جونسون، تفضل"

– "شكراً سيدي الرئيس. أيها السيدات والسادة. إننا، كما أشار السيد الرئيس، في سباق محموم مع الزمن. علينا أن نعمل بصبر وحكمة وألا نستسلم للانفعالات العاطفية وردود الأفعال غير المدروسة. لقد أفقدنا مقتل ذلك الالباحث مصدرا محتملا مهما للمزيد من المعلومات"

– "كان قتله حماقة كبيرة"

"– كان ذلك عملا صبيانيا"

– "لا بد أنه كان يعرف المزيد من الخبايا والتفاصيل"

تصاعدت الهمهمات والهمسات والهتافات بين الحضور. كان بعضهم قد أخذه الحماس كما لو أنه يسمع بالفعل أناشيد الحرب المقدسة، بينما احتفظ البعض ببرودة أعصـــابه منتظراً ما ســتكشــفه المداولات، في حين اكتفى البعض الآخر يتمسيد ذقونهم والنظر بعين متهكمة متشككة الى ما يجري وكأنهم يعرفون ما يختبئ وراء الكلمات من أســـرار ومصـــالح وعلاقات متشابكة.

– "نعم" استمر جونسن "مع الأسف، لكننا لن نعدم الوسائل للوصول الى العقل المدبر لكل هذا"

٨

لو أن أحداً حدثك قبل اليوم عن أجواء هذا المؤتمر، وحاضـــريه، وما دار فيه من أحاديث وخطب ومداولات لتملكك العجب.

قادة من مختلف الأهواء والمشارب لم يعقدوا يوما اجتماعا مماثلا لحل مشـــاكل الحروب والنزاعات والفقر والأوبئة وســـباقات التســـلح، ومع ذلك يحرصـون على الحضـور شـخصـيا لمناقشـة "هذا الأمر الخطير" رغم أن البعض منهم لم يسعفهم ذكاؤهم المحدود في فهم طبيعته!

رؤســـاء دول وملوك، كبار رجال الأعمال وأباطرة الصـــحافة، خبراء ومحللون اســـتراتيجيون وعســـكريون وأمنيون قادمون من كبرى الجامعات ومراكز الأبحاث، علماء وخبراء مختصـــــون بنظم الحاســـــبات والذكاء الصـــــناعي وتكنلوجيا المعلومات – وبينهم، وليس هذا بالغريب، زملاء ومستشارون للسيد مايك نفسه!

زعماء روحانيون يتمنون شرب دماء بعضهم البعض يجلسون متقاربين يتبادلون الهمسات والطرائف. قادة حركات تحرر يجلسون في انسجام مع من يريـدون التحرر منهم. زعيم دموي لم يزر بلـدا واحـدا في حيـاتـه ويضـرب على شـعبه طوقا فولاذيا يكاد يستحيل اختراقه يرسم على وجهه ابتســـامة عريضـــة وينحني بكل ود وتواضـــع لكل من يصـــدفه. الجنرال غريب الأطوار، قائد الدولة النفطية الذي يتعمد التصــرف بفظاظة وتعال مع كل "زملائه" من رؤساء وملوك العالم، هذا الذي لم يره أحد إلا بشعره المنفوش وبزته العســـكرية المثقلة بالنياشـــين، يجلس مثل تلميذ مهذب

وخجول – بتسريحة شعره الجديدة المشذبة وبذلته الرسمية السوداء وربطة عنقه الحمراء – وهو يســجل ملاحظاته في دفتر صــغير. رئيس دولة كبرى لم تزل الشـائعات تدور منذ أشـهر عن صـحته المنهارة وموته الوشيك يدخل بطوله الفاره ومشيته الواثقة وكأنه ابن عشرين. جهاديون، متدينون راديكاليون، يساريون ويساريات، يمينيون ويمينيات، تجار سلاح، فلاسـفة، رؤسـاء مؤسـسـات إعلامية كبرى... حتى كبار منتجي الأفلام والوجوه الفنية والرياضـية الشـهيرة وأباطرة تجارة المخدرات اتخذوا أماكنهم في هذه الحلقات نصـف الدائرية المتتالية حول المنصـة الرئيسـية، بل إن واحدة من ممثلات البورنو المتقاعدات كانت تجلس جنبا الى جنب مع الشيخ العجوز زعيم التنظيم الديني العالمي وهما يتهامسـان ثم يضـحكان بخباثة!

لم يدم اللغط والهمهمة وابتسـامات الترحيب طويلا، إذ سـرعان ما دعا مقرر المؤتمر الى جلســة مصـــغرة لعدد محدود من رؤســـاء الوفود ومستشاريهم في احدى القاعات الجانبية تاركا هذا الحشد من الحاضرين منشــغلين بتبادل الأحاديث والأخبار وإلقاء الخطب الرنانة على مســامع السيد الرئيس.

٩

- "لنتكلم بصراحة أيها السادة" قال جونسون "ما من داع للمبالغة في تبرير حرصنا على وأد هذا المشروع عن طريق تجميل مقاصدنا والتغني بالإنسانية ومستقبل البشرية. نحن لسنا خلف الميكروفونات ولا أمام الكاميرات – وأنا أعتذر بالمناسبة عن اضطرارنا الى منع كل أشكال التصوير والتسجيل والبث والنقل" إن مصالحنا كلنا، نحن القائمين على أمن ورفاه هذا الكوكب، تتعرض لخطر جسيم. تخيلوا ماذا سيحدث لو وصل هذا الاختراع الى أيدي كل الناس، غنيهم وفقيرهم، صغيرهم وكبيرهم. إن السياسة لا معنى لها دون تاريخ، والأديان لا معنى لها دون تاريخ، وجميع الفلسفات والمعتقدات والتقاليد والايديولوجيات والآداب والفنون والعلوم والسيكولوجيات الجمعية وكل النشاطات البشرية (بضمنها التاريخ نفسه) لا معنى لها إن فقدت تاريخها! ونحن، لا غيرنا، من صنع ويصنع التاريخ. وكنا، وسنظل، نفعل ذلك انطلاقا من حرصنا على أن نخدم مصالحنا.. كلا يا سيدي" خاطب أحد الحاضرين الذي أبدى احتجاجا هامساً" لا تقل إننا خدمنا بهذا البشرية، لقد خدمنا أنفسنا أولا، ولا بأس في أن تستفيد الجماهير بشكل عرضي. وهذا ما حدث: إنهم سعداء بتاريخهم، بحروبهم، بأمجادهم، بقديسيهم، بشهدائهم، بأبطالهم. وهم مستعدون لإراقة بحار من الدماء كي لا يُحرموا من هذه السعادة، ولا ضير – لا ضير أبدا – في ذلك. لنبدأ العمل إذن منذ هذه اللحظة بروح الفريق الواحد"

١٠

تنـاهـت الى المجتمعين في القـاعـة الجـانبيـة موجـات متقطعـة من التصفيق الحاد والهتافات وصيحات الاستحسان والاستهجان القادمة من القاعة الكبرى. كان وزير الخارجية الذي تولى إدارة الجلسـة، بعد أن "نجا الرئيس بجلده" من هذا الصـخب، الذي لم يكن إلا انعكاساً للرعب المخيم عليهم، يحاول أن يعيد النظام بصـــوت متهدج ونبرة المعلم الذي يخاطب حشداً من التلاميذ غير المنضبطين:

- "سيداتي، سادتي. يهمنا جداً أن نفسح المجال لكل رؤساء الوفود للتعبير عن آراءهم القيمة بخصـــوص هذا الخطر الداهم وكيفية التعامل معه. ليتفضـــل كل من يرغب منكم بالحديث، على ألّا يتجاوز الوقت المسموح به رجاءً."

توالت الخطب الرنانة التي تتشـــابه في نغمتها الخطابية وتكرارها للمفردات المألوفة. ورفع أحد رجال الدين يده مصـــراً على الحديث، كان الأمين العام للدعوة والإعلام الديني بمجمع البحوث الدينية في مكان ما. وما إن أُذن له بالكلام حتى شـــرع في مقدّمة طويلة من الحمد والثناء جعلت مدير الجلسة ينظر إلى ساعته بملل ظاهر. ثم بدا أنه وصل الى مقصده فقال أخيراً بصوته المجلل وقد أخذ منه الحماس كل مأخذ

- "أيها الحضـور الكريم.. مما لا شك فيه بأن آخر من ينبغي له أن يقلق على دينـه ودنياه هم أتبـاع ديننـا القويم وفرقتنـا النـاجيـة على وجـه التحديد، فلا شـيء يمكنه على الإطلاق أن يزحزح ايماننا الراسخ بصـحة

ما نؤمن به وما أنزل إلينا من عند الله.

أيها السـادة الحضـور، لا تظنوا أننا نعارض هذا الأمر من منطلق معادٍ للعلم أو التطور، أو أننا نجهل ما توصـل إليه العلماء من نظريات في نسبية الزمان وإمكانية السفر عبره، فكتابنا الكريم سبقهم الى ذلك في أكثر من موضـع، ومن ذلك قوله تعالى " يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّـمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَـنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ" وقوله تعالى "وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَـنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ" وقوله "تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ" كما وخصّ أهل الكهف بسـورة كاملة من كتابه الكريم. أليس في هذا دليل على الإعجاز العلمي لكتاب الله وأن الانتقال عبر الزمان مذكور ومسلم به في ديننا الحنيف؟

لكن هذا لا يمنعنا من أن نتحسـب من كيد الأعداء والحاقدين والمتآمرين الذين سيجدون في هذا الاختراع الشيطاني فرصة أخرى لإثارة الشبهات الخبيثة والتشكيك في تفاصيل ودوافع بعض الأحداث التاريخية وطرح الأسئلة التي لن ينتج عنها غير الضرر والكفر والمعصية وزعزعة العقائد، وزرع بذور الشـكّ في نفوس أبنائنا وبناتنا.. لقد فاجأني أحد أحفادي بعد أن قرأ مقالة ذلك الكاتب الذي خسف الله به الأرض بسؤالي عما سنفعل إذا أثبت هذا الاختراع خطأ الروايات التي توارثناها جيلاً بعد جيل؟ وعندما سألته عمّا يعنيه أجابني باستخفاف مستفز: يعني.. روايات عن عِلم هذا وكرم ذاك وشـجاعة فلان وعدالة علّان! وحين حذرته من أن الله تعالى ينهانا عن السـؤال عن أمور إن تبد لنا تسـؤنا أجابني في وقاحة: "ربما تضـركم أنتم لا نحن!" ثم أدار لي ظهره وغادرني وعلى

وجهه ابتســـامة شـــماتة. أرأيتهم أيها الســـادة؟ لقد تســـلل هذا المركب الشـيطاني الى بيوتنا وأفسـد أولادنا علينا حتى قبل أن يرى النور أصـلاً! علينا إذن أن نعمل بكل قوانا للقضـــــاء عليه وعلى من يقف وراءه من أعداء الله. والسلام على من اتبع الهدى."

س الشيخ في مقعده وهو يتصبب عرقاً حتى اعتدل الكاردينال العجوز في
على فمه شبح ابتسامة ساخرة كأنما كان ينتظر تلك اللحظة منذ زمن، فقال
ع بين الوقار والاستهزاء الخفي:

يداتي وسادتي. لا شك بأن اجتماعنا الاستثنائي هذا، الذي لم يسبق له مثيل
ي تاريخ البشرية، يعكس عمق القلق الذي يخيّم على العالم بأسره إزاء هذا
شروع المدمر وطبيعته الشريرة.
د تعرضت قبل أيام الى موقف شبيه بما حدث بين زميلي الذي سبقني وحفيده
د سألني أحد التلامذة – بجرأة لا تخلو من الوقاحة – عما سأفعل إذا استطاع
ختراع ما أن يعود بنا الى زمن ولادة المخلص ويرينا تفاصيل أخرى غير ما
عتدنا على روايته منذ قرون!
ها الأحبة، قد يتساءل البعض من ضعاف الإيمان عن مغزى سماح الإرادة
لإلهية بظهور مثل هذا الخطر، لكنني أدعو الجميع الى التمسك بالإيمان
جنب الذعر والثقة المطلقة بحكمة الله وعدالته وحكمة وصلاح قادة عالمنا
لذين تمثلون صفوته المختارة. إن إيماننا عميق وثقتنا عظيمة بالإرادة الإلهية
لحكيمة.

الْمَلِكِ فِي يَدِ الرَّبِّ كَجَدَاوِلِ مِيَاهٍ حَيْثُمَا شَــاءَ يُمِيلُهُ" وحتى ما نسـميه "الصدفة" أو "القدر" هو تحت سيطرة الله. فـ"الْقُرْعَةُ تُلْقَى فِي الْحِضْنِ وَمِنَ الرَّبِّ كُلُّ حُكْمِهَا"

حين انتهى الكاردينال، سـاد الصـمت للحظةٍ كأنّ الجميع ينتظر من التـالي أن يعلن الحرب أو المعجزة. ومـا هي إلا لحظـات حتى رفع البانديت الهندي المبجّل رأسـه، وعدّل عمامته ببطء قبل أن يتحدث بصوته الهادئ العميق:

- "مما لا شك فيه مطلقاً أن أرواح البشر تنفصل عن الجسد بشكل مؤقت خلال النوم وبشـكل دائم عند الموت، وأنها تنتقل من كائن الى آخر في سلسة طويلة لا نهاية لها من الولادات المتعاقبة. وهنا نتساءل: هل سـيعيد هذا الاختراع الخطير بناء الاحداث والتحولات التي يمر بها الجسد فقط، أم الروح أيضاً؟ ومن ذا الذي يضمن أنه يستطيع أن يقدم لنا صورة صادقة لولاداتنا السابقة؟"

ثم أطرق برأسه، كأنما سمع في أعماقه صدى سؤالٍ لا يملك له جواباً، وساد القاعة صمت مهيب امتزج فيه الإيمان بالريبة، والرهبة بالفضول.

١٢

- "وكان عالم النفس الشهير البروفيسور ب ب دانهالم أول المتحدثين بعد الاستراحة القصيرة"

هكذا كتب كبير موظفي دائرة الأمن الوطني المركزي في "جمهورية سكلوبيا الشرقية" في تقرير سري رفعه الى رئيسه الذي اعتذر عن الحضور لانشغاله بقمع موجة من القلاقل الداخلية. ثم أضاف:

- "وقد نبّه البروفيسور دانهالم الى خطورة المشروع على الاستقرار النفسي والعقلي للبشرية جمعاء، واصفاً ما سيحدث إن رأى النور بأنه ضياع كامل للمعايير وانتصار للفوضى واللا عقل. ثم عرض جملةً من المقترحات العامة للتعامل مع هذا التهديد عبر خلق رأي عام عالمي معاد ورافض بالاستفادة من أحدث الدراسات النظرية والميدانية التي أجراها المعهد الذي يرأسه "معهد دانهالم لاستراتيجيات علم النفس الجماعي.

تلاه رئيس الملتقى الاقتصادي الدولي فأكد على العواقب التي ستخلفها هذه الآلة الجهنمية على الاقتصاد العالمي والتي لن تكون أقل من الانهيار الكامل للاقتصاد العالمي نتيجة انهيار الثقة بمصداقية دوافع وآليات وقوانين التعامل والنشاط المالي بين الدول والمؤسسات والأفراد مقترحاً إعداد خطة عالمية متكاملة لمواجهة هذا "الزلزال الحضاري والاقتصادي" قبل أن يفلت من السيطرة.

كما استغل رئيس ما يسمى ب "جمهورية سكلوبيا الغربية" الانفصالية

فرصة وجوده في الاجتماع للاستمرار في نهجه العدواني الاستفزازي ضد بلادنا وقائدنا المفدى عبر التلميح الى وجود صـــــلات مزعومة بين مؤسساتنا الأمنية وبين القائمين على هذا المشروع زاعماً إن ذلك يدخل في إطار مســاعينا لامتلاك الأســلحة غير التقليدية، الأمر الذي جوبه بتجاهل تام من قبل الحاضـــرين الذين اعتادوا ســماع هذه الادعاءات الكاذبة..

وتفضلوا بقبور خالص آيات الطاعة والتبجيل"

هكذا ختم كبير موظفي الأمن تقريره الرســمي، وكأنه يختم صــــلاةً واجبة لا تقريراً استخبارياً.

١٣

توالــت الكلمــات في اليومين التــاليين. كلمــات لم تكن أكثر من اســتعراضـــات خطابية (حتى أن أحد المتحدثين أبدى قلقه من تأثير هذا الاختراع على صحة نسبة عدد من المسرحيات الى شكسبير!)

لكن حديثاً من نوع آخر كان يدور في القاعة الجانبية الطويلة، حيث غاب الإعلام والكاميرات. حديث خبراء وأرقام وتخصـــيصـــات وموارد وخطط ترســـم على الخرائط وفي أرض الواقع، وأصـــواتٌ خافتة تتداول احتمالات التنفيذ والمخاطر.

ثم تدخل الســيد جونســون ليضـــع حدّاً لتلك المداولات التي لا تنتهي ويلخص ما قيل من آراء، فقال وهو يفكر في الوقت الثمين الذي قضـــاه بعيداً عن غرفة عملياته الضاجة بالأحداث:

- "سيداتي سادتي. أعتقد بأن علينا ان نستفيد من كل ما تفضلتم به من مقترحات وآراء: ينبغي أن نحذر الناس ونوضح لهم الطابع الالحادي الفوضـــوي العدمي لهذا الجهاز. علينا – كما تفضـــل عدد منكم – أن نوظف علم نفس الجماهير لكي نرســـخ في أذهان الجماهير الطبيعة التآمرية للمشــروع. نعم يا ســيدي" وأومأ الى أحد الجالســين في الصــف الأول الذي أبدى إشــارة اســتحســان بالجملة الأخيرة" فلا ارنولد تونبي ولا كارل ماركس ولا ابن خلدون ولا ويل ديورانت بقادرين على منافسة نظرية المؤامرة باعتبارها اسهل طريقة لفهم التاريخ وللتأثير على الجماهير"

توقف لحظةً، ثم تابع بنبرةٍ أكثر صرامة:

- "لكن هذا لا يقلل من أهمية ما أشـــار اليه صـــديقي رئيس منظمة التنمية والتعاون الاقتصادي والمالي من ضرورة فرض عقوبات اقتصادية صـارمة على كل فرد أو مؤسسـة أو دولة تتورط – من قريب أو بعيد – بهذه المؤامرة القذرة. إنها إذن يا ســـادتي الخلطـة السـحرية والخطـة الاستراتيجية المجربة لإنقاذ حضـارتنا المهدَّدة: القوة العسكرية، الضـغط الاقتصادي، النشاط الاستخباري والأمني والحرب الاعلامية والنفسية!"

وفي هذه الأثناء كان رئيس دولة كبرى يجلس في الصـف الأول يقول مع نفسه:

- "لا شـك في أن هذا الوغد يخطط للوصـول الى هذا الاختراع قبل غيره لكي يتجسس علينا بأثر رجعي!"

وعبَّ رئيس آخر تثقل صـدره النياشـين نفسـاً آخر من سيكاره الفاخر وألقى نظرة استصغار على يمينه ويساره وردد مع نفسه:

- "أغبياء! فاشـلون! جبناء! لو تركتم الأمر لي لجاءني رجالي بهذه اللعبة وصـانعيها خلال أربع وعشـرين سـاعة. آه، كم كنت سـأتلذذ وأنا أراهم يتمزقون في قفص الكلاب الجائعة!"

وأخيراً رفع جونسون صوته قائلاً بنبرة حاسمة:

- "حسـناً يا سـادتي. سـتكون أمامكم، بعد اسـتراحة الغداء، مسـودة الوثيقة الختامية الصـادرة عن اجتماعنا التاريخي فضـلاً عن نصـوص المعاهدة الدولية التي أرجو توقيعها في جلسة المساء الختامية.

١٤

ما أن دخل السـيد جونسـون، بطوله الفارع وقامته المنتصـبة وهيئته المهيبة التي لم تخل، رغم تجاوزه الستين، من وسامة، الى مقر إدارته في العاصمة حتى هب الجميع واقفين مرحبين مهنئين بالسلامة. فلبث قليلاً ليرد على تحياتهم بوقاره المعهود قبل أن يدخل مكتبه ويتخلص من سترته وربطة عنقه.

تأمل المكان الذي اشـتاق اليه بارتياحٍ كبير. لقد قضـى فيه سـنوات عديدة ولم يغادره برغم تبدل الحكومات حتى غدا أقرب إليه من بيته، بيته الصـغير الذي لم يشـهد يوماً ضـحكات امرأة أو مناغاة طفل. كان يأتي الى هنا حتى في العطلات. إنه يشـعر هنا بالأمان بين صـفوف الكتب الطويلة التي منحته ما يعتد به من معرفة بالنفس البشـرية وسـلوك الشـعوب والأفراد. ويحس بالقوة والهيمنة وهو يشـرف كما الصـقر من خلال النوافذ الكبيرة التي تناطح السحاب على العاصمة العظيمة والخليج المترامي الأطراف. وكانت اللوحات الزيتية المعلقة على الجدران لكونفوشـيوس وتاليران ونابليون ومتيرنخ وبسـمارك هي العلامات الوحيدة على الخروج من طابع التقشـف الصـارم للمكان، رموزاً لقادةٍ عرفوا كيف يُخضعون التاريخ لإرادتهم.

دخل فيليب، مساعده الأمين، وقال بانحناءةٍ خفيفة:

- "سيدي. أهلاً بعودتك. ألم يكن من الأجدر بك أن تستريح يوماً أو يومين من عناء السفر والاجتماعات"

- "أهلا يا فيليب. لا نملك وقتاً للاستراحة. آسف لأنني لم أتصل بك من هناك، لكنني كنت أعرف بأنني وضعت المهمة في أيدٍ أمينة"

- "شكراً يا سيدي"

- "ها. والآن. ما وراءك من أخبار؟"

- "ثمة خبران يا سيدي. أحدهما سارّ والآخر قد يزعجك"

- "هات ما عندك"

- " لقد عرفنا من يقف وراء هذا المشروع"

- "من يكون؟ قل بسرعة"

- "إنه مايك، مايك بلومبرغ"

- "رجل الأعمال الشاب؟"

- "هو بعينه يا سيدي"

- "كنت أشك بذلك. وهل أمسكتم به؟ هل جمعتم ما يكفي من معلومات عن جهازه وعن مراحل تنفيذه؟"

- "للأسف يا سيدي، لقد كان رجالي على وشك الامساك به، لكنه أفلت منهم. لقد اختفى منذ أيام ولا يعرف له أثر"

تغيّر وجه جونسون، لكنه تمالك نفسه، وقال بنبرة أراد أن تبدو هادئة:

- "اسمع يا فيليب. أنت تعرف أنك يدي اليمنى وأنني أعتمد عليك وأثق بك. لو كان غيرك قد ارتكب هذا الخطأ لنال ما يستحق من العقاب. سأمنحك فرصة أخرى، ولكن احرص على أن ينال رجالك هؤلاء ما يستحقون "

- "لقد فعلت يا سيدي، وأعدك بأن تسمع مني كل خير في غضون

أيام قلائل"

- "يحسن بك أن تفعل. إننا نسابق الزمن لإنجاز المهمة قبل غيرنا"

وابتسم الاثنان لهذا التعبير المجازي العفوي!

لكنها كانت بداية فصـــــلٍ جديد من المطاردة بين عقلين يطمح كلٌّ منهما إلى أن يمتلك الماضي قبل أن يمتلكه الآخر.

الفصل الثاني

لن أقتل جدي

١

ركض مايك، وقد خنقته العبرة، نحو البستان الكثيف الصغير الملحق بالمدرسة. إنه ملجؤه المفضل حين يهرب من مضايقات عدد من زملائه الذين اعتادوا، منذ ظهور بوادر ذكائه الخارق وتفوقه في دروسه، على ملاحقته ومناداته.بدا له جارحاً "ذو العقلين"

- "إنهم لا يقصدون سوءاً. هم يمازحونك فقط." قالت له كيتي "لماذا تنزعج وتنفر من هذا اللقب في حين ينبغي لك أن تفخر به؟"

- "هم يسخرون مني يا كيتي. إنهم يعتبرونني ولداً غريب الأطوار. ألم تسمعي ما قاله تومي يوم أمس: أيها الفضائي ذو الرأسين إن لم تعجبك مخالطتنا فعليك أن تعود الى كوكبك في الحال. يكفيك تعالياً وتكبراً!"

- "هيا يا مايك، لا تبالغ. تذكّر أن تومي البدين هو أغبى تلميذ في هذه المدرسة، بل في المدينة بأسرها. أنه يغار منك لأنني.. لأنك.. أوه، لكنه لن يستطيع إيذاءك، أنا، أعني كلنا، نحبك ونعتز بصداقتك"

هل كان هذا اعترافاً سبقته اليه؟ لم يستطع أن يواصل حبس دموعه التي انهمرت في صمت. فأمسكت برأسه وضمته الى صدرها النابت الذي عبق برائحة غريبة أصابته بالدوار. وسمع خفقات قلبها القوية المتلاحقة فنزلت عليه سكينةٌ أزالت كل مخاوفه. لقد كان فرحاً، آمناً وممتنا، وكانت تلك الدموع طريقتُهُ لقولِ شكرا، وهي عادة ستلازمه طوال حياته عندما يربكه مزيج من حزن وحب غامر وعرفان كبير وحاجة

1

مايك، وقد خنقته العبرة، نحو البستان الكثيف الصغير الملحق بالمدرسة. إنه لمفضل حين يهرب من مضايقات عدد من زملائه الذين اعتادوا، منذ ظهور كائه الخارق وتفوقه في دروسه، على ملاحقته ومناداته بلقبٍ بدا له جارحاً "ذو

"إنهم لا يقصدون سوءاً. هم يمازحونك فقط." قالت له كيتي "لماذا تنزعج وتنفر من هذا اللقب في حين ينبغي لك أن تفخر به؟"

"هم يسخرون مني يا كيتي. إنهم يعتبرونني ولداً غريب الأطوار. ألم تسمعي ما قاله تومي يوم أمس: أيها الفضائي ذو الرأسين إن لم تعجبك مخالطتنا فعليك أن تعود الى كوكبك في الحال. يكفيك تعالياً وتكبراً!"

"هيا يا مايك، لا تبالغ. تذكّر أن تومي البدين هو أغبى تلميذ في هذه المدرسة، بل في المدينة بأسرها. أنه يغار منك لأنني.. لأنك.. أوه، لكنه لن يستطيع إيذاءك، أنا، أعني كلنا، نحبك ونعتز بصداقتك"

هل كان هذا اعترافاً سبقته اليه؟ لم يستطع أن يواصل حبس دموعه التي انهمرت في صمت. فأمسكت برأسه وضمته الى صدرها النابت الذي

لعناق من يتحدث معه.

يومها عرف بأن هذه الفتاة الآسيوية الضئيلة ستكون شريكة حياته الى الأبد.

٢

لكن ثلة الصبية المتنمرين الذين يرأسهم تومي لم يدعوه وشأنه. فقد ازدادوا فظاظة وعدوانية حتى وصل الأمر الى اعتراض طريقه وتعمد الاصطدام به وبعثرة كتبه ثم الاعتداء عليه ضربا. حاول مايك مراراً أن يتجنبه ولا يريه وجهه لكن دون جدوى، ثم فكر في مقابلة المدير وعرض شكواه، لكن المدير وعده بأن يستدعي والد تومي (الوغد السكير الذي لم يكن يتوانى عن ضرب زوجته على مرأى من أبنائه) رغم علمه بأن هذا الرجل سيكتفي (إن لبى دعوته) بضرب ابنه ضرباً مبرحاً ثم حبسه في مرأب البيت يوماً أو اثنين، الأمر الذي اعتاد عليه ولن يزعجه كثيراً على كل حال.

- "أصغ الي يا مايك" قال له المدير "الحياة مليئة بأمثال تومي. من يضمن أنك لن تتعرض لمضايقات أخرى في المستقبل؟ هنا أو في أي مكان آخر؟ لن أكون موجوداً لحمايتك، لا أنا ولا جدك ولا صديقتك الشجاعة لاعبة الكاراتيه التي يخشاها تومي. لا تخجل يا ولد! أنا أعرف كل شيء. قلت لي ما اسمها؟ آه نعم. كيتي جونغ. إنها حقاً لفتاة جريئة وطيبة. كنت أعرف أباها عندما خدمت في الاسطول. كان مثلك، فتى خلوقاً مسالماً لكنه صبر على الكثير من المضايقات والاعتداءات الى أن.. حسناً، لقد لقنهم درساً لم ينسوه أبداً. يا للشاب الشجاع!"

بعد يومين فقط التقى بتومي في مدخل حمامات البنين. كان وجهه يتطاير بالشرر وقد ظهرت على وجهه آثار كدمات زرقاء. لا بد أن والده

قسى عليه بالضرب. وشعر مايك بأسىً خفيّ تجاهه.

- "هيه أيها الكتكوت الجبان. هل اشـتكيتني الى المدير؟ أتظن بأنك ستنجو بفعلتك هذه؟"

- "ابتعد عن طريقي"

- "وماذا إذا لم أفعل؟ هل ستذهب الى المدير مرة أخرى أم تستنجد بعاهرتك الصغيرة لتخليصك من يدي؟"

وامتقع وجه مايك حين سمع ذلك. واعترته نوبة من الغضب ارتجف معها جسده برمته.

- "أحذرك للمرة الأخيرة: إياك أن تلفظ اسمها بسوء"

- "وماذا ستفعل أيها الفضائي الأخرق؟ هل ستضربني؟ هيا، افعلها إن كنت رجلاً!"

لم يدر مايك من أين جاءته كل تلك القوة. كانت لكمة هائلة في معدة تومي الذي جحظت عيناه وتلوى ممسكاً ببطنه ثم هوى أرضاً محشرجاً:

- "آه، لقد قتلتني!"

3

فعت كلمات تومي الرعب في قلب مايك، فانطلق راكضاً لا يلتفت وراءه. لم يكن ت الجد بعيداً، لكن الدقائق العشر التي استغرقها للوصول إليه بدت له دهراً ملاً. لم يكن الخوف وحده يسري في جسده النحيل؛ فقد امتزج بشعورٍ غريب من خار والدهشة: من أين جاءته تلك القوة؟ وكيف تغلب أخيراً على جبنه — جبنه خجل الذي طالما اعترف به في سره؟

نت عروق صدغيه تنبض بقوة وراح يتساءل وهو يلهث: ترى هل سيلقون القبض يه ويلقونه في السجن؟ هل سيحكمون عليه بالإعدام؟ ومع ذلك كان جزء من عيه المشوش مبهوراً بما فعل ويتخيل وجوه زملائه – ماري وكيتي وستيف – ين يسمعون أنه "قتل" ذلك الزعيم الشرير.

م يكن الباب الأمامي المؤدي الى الصالة مفتوحاً فالتفّ راكضاً حول المنزل ودفع ب المطبخ الخلفي المشبك ونادى:

- "جدي! أين أنت؟"

لم يجبه أحد فوثب مرتقياً درجات السلم الخشبي المؤدي الى العليّة واقتعد الأرض وراء الصندوق الكبير الذي يتوسطها – ذاك الذي يتخذه الجد منضدة لممارسة هوايته في النجارة والأعمال الخشبية، ثم دس نفسه

متحفزتان تحسباً لسماع صوت سيارات الشرطة التي ستهرع حتماً وراءه.

- "آه يا جدي، أين أنت؟"

ومضـت دقائق بدت له سـاعات قبل أن يسـمع قعقعة الباب الحديدي المزخرف ثم وقع أقدام أليفة وصوتاً دافئاً يأتيه كملاك منقذ:

- "مايك. أنت هنا؟ أين أنت؟"

- "هنا يا جدي، في العلية" أجاب وهو يمسح عينيه.

- "ماذا تفعل هناك بحق الشيطان؟ انزل يا ولد!"

- "هل أنت وحدك؟ أعني أليس معك أحد؟"

- "بالطبع وحدي. ما هذا السؤال؟ هيا انزل فوراً"

أطل الفتى من أعلى السـلم وعندما تأكد من الأمر أخذ يقفز الدرجات اثنتين اثنتين ثم ارتمى في حضن العجوز.

- "آه يا جدي، لماذا تأخرت؟"

- "ما بك يا بنيّ؟" ورفع رأسه وتطلع في وجهه "هل كنت تبكي؟ ماذا حدث؟ أين حقيبتك ولماذا رجعت باكراً من المدرسة؟"

- "آه يا جدي. أظن أنني.. آنني قتلته!"

- "قتله؟ قتلت من؟"

- "توم الشـرير.. لكمته في بطنه فمات. سـتأتي الشـرطة لسـجني، أليس كذلك؟"

- "اهدأ يا ولد. لن يسـجنك أحد، ولا أحد يموت بلكمة من كتكوت مثلك!"

شعر بمزيج من الراحة والغضب من هذا التأكيد.

- "أرجوك يا جدي، لسـت كتكوتاً. ثم إنني رأيته وهو ينحني ممسـكا بطنه وسمعته يقول لقد قتلتني"

- "لا تغضـب يا بطل. أنا فقط أمازحك. والآن اهدأ واجلس واحكِ لي كل شيء بالتفصيل"

روى له مايك كل ما جرى منذ بدأ تومي وعصابته بإزعاجه الى لحظة "موته".

ابتسم الجد وقال:

- "أظن أن علينا قبل كل شـيء معرفة ما جرى لتومي هذا. أظن أن من الأفضـل أن تتصـل بكيتي لتسـألها عما حدث بعد مغادرتك "سـاحة الجريمة" ههه لا تغضب. هذه مجرد مزحة أخرى"

٤

طلب الرقم بيد مرتعشـــة، وما أن فتحت الخط وتعرفت على صـــوته حتى انطلقت موبخة مثل أمٍّ صغيرة غاضبة:

- "كيف فعلت هذا يا مايك؟ هل فقدت صوابك؟!"

وتمتم مغالباً دموعه:

- "أوه كيتي. أنا لم أقصد ذلك ولكن.."

قاطعته دون أن تدعه يكمل:

- "الى متى تظـل على هـذا الحـال؟ تتحجج مرة بـالنســـيـان ومرة بالاسـتعجال أو السـهو. لكنني لن أقبل أعذاراً كهذه بعد اليوم. كيف تترك دولابنـا المشـــترك مفتوحـاً؟ ألا تعرف بأنني احتفظ فيـه بـدفتر مـذكراتي وبثياب التنس خاصـــتي؟ ألم تفكر بما ســـيحدث لو وقعت بيد واحد من أولئك المتطفلين؟"

- "كيتي، اسمحي لي.."

- "وماذا عن معطفك؟ هل سـتقول إنك نسـيت ارتداءه في هذا الجو البارد؟ تقول أمي أن من الحماقة الخروج دون معطف في مثل هذا الجو المتقلب في هذا الوقت من السنة بالذات. لقد أصيبت ابنة عمها بالتهاب رئوي أدخلها المستشفى وكاد أن يودي بحياتها في الخريف الماضي لأنها خرجت دون معطفها حتى أنها.."

وطفقت تثرثر دون توقف والجد يضـحك وهو يرفع عينيه الى السـماء نافد الصبر إذ يبلغه صوتها ثم ينزل ذراعيه علامة الاستسلام ويتمتم:

- "آه. النساء، النساء!"

وغمزه بعينيه وحرك قبضـته في الهواء ليذكره بالسـؤال عما حدث بعد تلك اللكمة، فقاطعها الفتى سائلاً:

- "كيتي، هل رأيتِ تومي؟"
- "آه، تومي الشرير، ما به؟"
- "هل رأيته اليوم؟ أعني بعد الاستراحة؟ هل هو بخير؟"
- "ولماذا لا يكون بخير؟ أسئلتك اليوم غريبة"
- "هل أنت متأكدة؟"
- "نعم هو بخير إن كان يهمك أمره. لكنني لاحظت أنه لم يغادر مقعده على غير عادته وكان شاحباً ويمسك ببطنه كأنما يتألم من شيء ما. ولاحظت أيضاً إن عدداً من أفراد عصابته سخروا منه وصاحوا "آه لقد قتلتني" آه تذكرت: لقد وقف سام العجوز – الولد الطويل النحيل ذو النظارة السميكة الذي انكسرت رجله قبل عامين أثناء المباراة بيننا وبين فريق المقاطعة – هل عرفته؟ لا؟ يا لك من ساهٍ! سام الذي كان الثالث من اليمين في الصف الثاني من الصورة الجماعية التي التقطناها قبل سنتين، أو ربما ثلاث سنوات.. آهٍ منك! لقد بدأت أشك في ذاكرتي بسببك..."
- "توقفي يا كيتي. ما به هذا السام؟"
- "آه، سام! لقد وقف على رأسه وتمتم باسمك بسخرية وتشفٍّ. أخبرني يا مايك ماذا جرى بالضبط؟"

- "شكراً كيتي. لقد تذكرت شيئاً مهما. سأتصل بكِ لاحقاً."

قاطعها وأغلق الخط وقد عاد الدم الى وجهه. وسأله الجد بلطف:

- "هل اطمأننت؟ يبدو أنك تشــعر ببعض العطف عليه رغم ما فعله معك. والآن لنحضــر شــيئا نأكله وتعيد علي رواية مغامراتك البطولية يا ساحر النساء!"

هكا هو جده: ملجؤه ومنقذه ومســـتشـــاره الحكيم الذي تكفي جملة ضـــاحكة منه لتبديد كل مخاوفه. والذي ظل يراه أمامه في أصـــعب لحظاته.. حتى بعد رحيله!

٥

من الغريب أن تومي لم يعد بعدها الى مضــايقته. بل أن سـلوكه قد شهد تحولاً كاملاً، فغدا أكثر انزواءً وهدوءاً وابتعد شيئاً فشيئاً عن "عصبة الأشــرار" كما اعتاد التلاميذ على تســميتهم، بل تخلى عنهم نهائيا تاركا الزعامة لسامِ العجوز إياه.

والأغرب من ذلك أن الأدوار بينه وبين مايك تبدلت تماماً، إذ صـــار الأخير، بعد أن كرر لـه اعتـذاره عمـا بـدر منـه، يكثر من التودد إليـه والتعاطف مع أوضاعه العائلية الصعبة. ونجح بعد جهد طويل في ضمّه الى حلقة أصــــدقائه المقربين: كيتي وماري وســـتيف، وإن ظل الأكثر انطواءً والأكثر تلكؤاً في تحصيله الدراسي.

لكن اللافت حقاً هو أن تومي لا غيره كان من أشـــعل دون قصـــد الشرارة الأولى التي انبثق منها حلمه العظيم.

حدث الأمر هكذا: كـان المطر يهطـل بغزارة في ظهيرة تلـك الجمعـة فتعذر على المجموعة الذهاب لمشـــاهدة مباراة كرة القدم التي خططوا لحضورها. جلسوا في الكافتيريا وهم يغالبون النعاس والضجر ولا يعرفون ما يفعلون. وفجأة قال تومي، وهو يعبث بعلبة العصير أمامه:

- "اسمعوا. ثمة فلم ممتع جديد سمعتهم يتحدثون عنه بإعجاب. لماذا لا نذهب لمشاهدته؟"

- "أوه، أ هو فلم آخر عن البحر ومغامراته؟" ســـألت ماري بنبرةٍ محتجة.

- "أم تراك عدت الى ولعك القديم بأفلام العصـابات والقتال؟" تسـاءل ستيف في تهكم.

- "كلا. أظنه فلماً عاطفياً رومانســـياً. ألم تلاحظوا يا رفاق كيف صـــار صـــاحبنا يســرح في الخيال وكيف صـــار اكثر اهتماماً بملابســه وتسريحة شعره؟" قالت كيتي بابتسامةٍ عطوفة.

- "لا هذا ولا ذاك. إنه فلم من أفلام الخيال العلمي. عن آلة الزمن بالتحديد" أجابهم تومي.

- "أوه. فلم آخر عن تلك المركبات المضـحكة وعصــيّ التبديل ذات الرؤوس الياقوتية والسـاعات التي تدور عقاربها الى الأمام والخلف!" قال ستيف.

- "أتعني تلك الآلة التي حلم بها السـيد ويلز ووصــفها في كتابه آلة الزمن؟ كلا. تلك أفلام قديمة عفا عليها الزمن. لا بد أنهم قد فكروا في طرق جديدة لإبهارنا وإثارة خيالنا" قالت كيتي.

- "أنا موافق" حســم مايك النقاش "دعونا نذهب ونشــاهد الفلم. ربما كان ممتعاً كما يقول تومي"

وكان فعلاً كما وصــفه تومي: قصـــة جديدة طريفة عن عالم عجوز شــبه مخبول وشــاب يتطوع لقيادة مركبته عبر الزمن فيتعرض لمفارقات مضـــحكة عجيبة. كان فلماً مصـــنوعاً بإتقان موظفاً أحدث النظريات العلمية ومســتعيناً بآخر تقنيات الكومبيوتر في وقته لخلق حيل ســينمائية رائعة يصعب تخيل وجودها في تلك الأفلام القديمة التي تتناول الموضوع نفسه.

كان المطر قد توقف عندما خرجوا من دار الســـينما فاقترح عليهم ســتيف أن يتمشــوا قليلا قبل ذهابهم الى بيوتهم. ســاروا صــامتين حتى وصلوا الى منتصف الجسر الخشبي القديم فتوقفوا ليطلوا على النهر التي تتراقص فوقه أضــواء المســاء. اتكأ تومي على الســياج الأخضــر البارد وقال كمن يحدث نفسه:

- "آه، ليتني امتلكت آلة كهذه."

- "لكنك تعشق السفر عبر المحيطات لا عبر القرون" علق ستيف، فاستدار توم نحوه وقال بصوتٍ خافتٍ متهدّج:

- "في حالتي كنت ســأســافر الى المســتقبل. ليس بعيداً جداً، ولكن لبضع سنين فقط، حتى أجد نفسي قبطاناً أو ضابطاً في المارينز. أجوب البحار، بعيداً عن هذا الـــ.. " واختنقت الكلمات في حلقه فأشاح بوجهه ليخفي تعبير الحزن الأليم الذي ارتسم عليه.

قال ستيف بعد لحظة صمت:

- "أما أنا، فلن أعدم طريقة أســتفيد بها من هذه المركبة كي أصـــبح أغنى رجل في العالم!"

- "وأنا سـأسـافر بها كي أعود اليكم" قالت ماري ضـاحكة واسـتدركت "أسـافر لعشـرين أو ثلاثين عاماً الى الأمام لأرى الى أين وصـلتم وكيف ســتكون علاقاتنا ببعض" وألقت على مايك نظرة ذات مغزى لم يلاحظها أحد، ثم تساءلت: ترى هل ستبقى صداقتنا الجميلة الى الأبد؟ ألن يفسدها الزمان أو النسيان أو الطمع أو الخيانة؟"

- "الخيانة؟" تساءل تومي "كلا، أبداً! من يخن سيمحوه الزمان نفسه،

مثل ورقة بيضاء مُحيت سطورها!"

وأغمضت كيتي عينيها وقالت حالمة:

- "أما أنا فســـوف أعود الى زمن الملاحم. ألتقي بكلكامش واتحدث الى أخيل وأعدو في الغابات مع ديانا ورفيقاتها. آه ما أجمل تلك العصور!"

واسترسلت طويلاً كأنما تحدث نفسها في هدأة المساء، ثم استدركت وكأنها ستحضّر حقائبها بعد يومين:

- "لكنني لن أسافر لوحدي بكل تأكيد." ثم التفتت نحو مايك وسألته:

- "وماذا عنك يا مايك؟"

- "ها؟ ماذا؟" خرج مايك عن صمته الطويل وقال مرتبكا.

- "أين سرحت يا عزيزي؟ أسألك عما ستفعله إذا حصلت على تلك الآلة؟"

- "تلك الآلة؟ لا أدري. المهم أن نحصـــل عليها أولاً، ثم نرى ما سنفعل بها."

وشـــد قبضـــته الغارقة في جيب معطفه كمن يقبض على كنزٍ خفي وردد مع نفسه:

- "حلم ويلز، حلم ويلز!"

٦

في غفلةٍ عن رفاقه، ذهب مايك لمشـــاهدة الفلم في اليوم التالي، ثم أعاد الكرّة بعد بضعة أيام. وانتابه شيئاً فشيئاً هوس لا يقاوَم لمشاهدة كل الأفلام والمسلسلات بل وحتى أفلام الرسوم المتحركة التي تتناول السفر عبر الزمان، فأخذ يكثر التردد على مكاتب تأجير الأفلام ويتســمر الســاعات الطوال أمام التلفزيون ليشــاهدها مرة تلو مرة. وقاده ولعه هذا الى اســتعارة واقتناء كل ما تقع عليه عيناه من كتب ومجلات مبتدئاً بالطبع بأشهر كلاسيكياتها وأعني رواية آلة الزمن لويلز.

لم يغب هذا الولع عن ملاحظة الجد الذي قال له يوماً وهو يراقبه بين الكتب:

- "أراك تولي اهتماماً كبيراً بهذا الموضـوع. ماذا يشـدك اليه: الجانب الخيالي، أعني ذلك الحلم اللذيذ الذي راود كل الناس بالانتقال عبر الزمان وكشف أسرار الماضـي وخفايا المستقبل، أم الجانب العلمي، أي امكانية تحقيق هذا الحلم نظرياً وعملياً؟"

- "كلاهما يا جدي."

- "هل يعني هذا أنك لن تكتفي بالحلم؟"

- "كلا بالطبع."

- "وهل تراه قابلاً للتحقيق؟"

- "بالتأكيد. وخلال هذا الجيل."

ضحك الجد وهو يهز رأسه بإعجاب:

- "أوه، أراك متحمساً كعادتك يا فتى. إنك تذكرني بطفولتي. لا تظن أن تلك القصــص والأفلام لم تلهب يوماً مخيلة جدك العجوز. ربما كانت توقعاتك صحيحة. ربما سيشهد جيلك ولادة تلك الآلة أو شيءٍ شبيه بها. حتى ذلك الوقت أريدك أن تحافظ على حلمك. الحلم أول الخطوات، بل هو الدافع الى الخطوات التالية. ما من اختراع أو ابتكار عظيم إلا وسبقه نوع من الحلم به، لا أعني بتفاصيله وشكله النهائي بالتحديد، بل بكنهه، بهدفه، وإن بشكل غامض. لولا أن البشـر قد حلموا لعشـرات الآلاف من الأعوام بطريقة ما تخلّد أفكارهم وتســـجّل وقائعهم وتاريخهم وتنقلها الى الأجيال التالية لما وجدت الكتابة"

- "لكن ثمة اكتشافات كبرى غيرت مصير البشرية قد أتت بالصدفة على الأغلب. إيقاد النار مثلاً"

- "هذه ملاحظة ذكية، لكن من كان سيحفل بالنار وإيقادها والاستفادة منها لو لم يكن الانسان قد حلم بشيءٍ يحميه من البرد والوحوش ويضيء لـه ليلـه؟ لولا الحلم لظل الانســـان ينظر الى النـار كمـا تنظر اليـه الحيوانات: شـــيء مخيف عجيب غير مفهوم، أو مقدس في أفضـــل الأحوال. لقد سـقطت مليارات من التفاحات من الأشـجار قبل اكتشـاف قانون الجاذبية، لكنها لم تلهم نيوتن (كما تزعم الحكاية) إلا لأنـه كان مســتعداً لها: إلا لأنه كان يحلم، أو يفكر، بوضـــع قوانين تفســـر هذه الظاهرة؟ والآن لنعد الى السـفر عبر الزمن: لماذا يحلم الانســان به؟ بل دعنا من هذا وقل لي: لماذا تحلم أنت به؟"

أطرق مايك برأسه وقال بصوتٍ خافتٍ مفعمٍ بالحنين:

- "لأسباب كثيرة: معرفة المستقبل وما سيشهد من تقدم في العلوم والفنون، أحلم بأن أمنع الحروب في المستقبل، أن أعرف الحقيقة عما جرى في الماضي، وأن.. أن أرى أمي وأبي"

ساد صمتٌ موجع طويل. كانت الدموع تترقرق خلاله في عيني الجد والحفيد معاً. ثم فتح الجد ذراعيه فألقى الحفيد نفسه في أحضانه.

- "ستراهما إذن يا صغيري. أكاد أجزم بذلك" قال الجد ثم استعاد رباطة جأشه وقال بابتسامة حانية:

- "والآن أيها الفتى العبقري، عليك أن تفكر بالنقطة التي تبدأ منها"

وترك مايك حضن جده وانتصب قبالته وقال في ثقة:

- "سأبدأ من حيث بدأ الجميع: بدراسة كل شيء عن الموضوع"

٧

بعد بضـع سـنوات فوجئ أسـتاذ الفيزياء المشـرف على بحوث التخرج بعنوان غريب لا ينسجم مع موضـوعات الطلبة المعتادة كان بحث تلميذه المميز مايك بلومبرغ تحت عنوان "فكرة السـفر عبر الزمن، بين الخيال العلمي وقوانين الفيزياء الحديثة"

لم يسـتطع الأسـتاذ وهو يعدل نظارته ويتطلع الى العنوان منع نفسـه من الابتسام:

- "أوه مايك، مايك، السفر عبر الزمن من جديد؟"

لكنه، وقد أوشك أن يرسل في طلبه ليحثه على اختيار موضوع "أقرب الى العلمية" و "أكثر اسـتغلالاً" للإمكانات الواعدة-أو ربما العبقرية لعقل مثل عقله في حقول الفيزياء النظرية ، خشـي أن يجرح كبرياء الفتى واعتداده بنفسـه إن أرغمه على فعل ذلك، هذا إن اسـتطاع التغلب على عناده وإصـراره وقوة منطقه. فقرر وضـع البحث جانباً ليتسـنى له قراءته على مهلٍ عندما يعود الى المنزل في المساء.

في صباح اليوم الأول من الأسبوع التالي كان الفتى جالساً على حافة المقعد المحاذي لمكتب مدير المدرسة الثانوية نفسه وقد وضع كفيه بين ركبتيه المضـمومتين ليخفي رعشـة القلق والترقب التي سـببها اسـتدعاؤه المفاجئ اليه، وهو أمر قلما يحدث إلا لأمور شـديدة الأهمية، أو فلنقل لحماقات كبيرة تتطلب الحضور أمام هذا الرجل الصارم المهاب.

- "أهنئك يا مايك" قال المدير وهو يربت على ملف أخضـر مفروش

أمامه "لقد حدثني أستاذ الفيزياء عن بحثك الرائع هذا" وأشار الى ملف مغلف باللون الأخضر افترش المكتب "أتعرف يا مايك؟ هذا الأمر لم يفاجئني، فأنت واحد من أفضل الطلبة الذين مروا على هذه المدرسة طوال تاريخها"

احمر وجه مايك خجلاً وتصبب العرق من جبينه. وتابع المدير بلطف:

- "والأن يا مايك. أنت تعرف بأن موضوع بحثك ليس من اختصاصي ولذلك أرسلت إليك لأطلب منك كتابة نسخة مختصرة، نسخة مبسطة مفهومة للقارئ العادي من أمثالي. هل ستفعل يا مايك؟.. آه، وأريد أيضاً صورة حديثة لك!"

ولم تمض أيام حتى فوجئ مايك وأصدقاؤه، بل المدرسة كلها، بصورة مايك تتصدر صفحة كاملة من أوسع الصحف انتشاراً في الولاية وتحتها عنوان مثير:

"هل سيشهد جيلنا إطلاق مركبة الزمن؟

السفر عبر الزمن بين الحلم الإنساني والعقل الفيزيائي"

كانت مقالة طويلة اختلط فيها العلمي بالفلسفي والرياضي بالأدبي:

- "منذ أن بدأ الإنسان يحدّق في الغروب بشيءٍ من الندم، أو يرفع بصره إلى الأفق متسائلًا عمّا يخبّئه له المستقبل، وُلدت فكرة السفر عبر الزمن. ليست مجرّد خيالٍ روائي أو نزوةٍ فكرية، بل انعكاسٌ عميق لرغبة الإنسان القديمة في مقاومة الفناء، وفي استعادة ما مضى أو اختلاس نظرة إلى ما لم يأتِ بعد.

في الأســاطير الأولى، من جلجامش الباحث عن الخلود إلى الحكماء الهنود الذين يعودون بعد قرونٍ لم يدركوها، كان الزمن يُرى بوصفه ستاراً قابلاً للانطواء. وفي الديانات، تلوّن الزمن بألوانٍ شتى:

ففي المسـيحية هو خطّ الخلاص الذي لا يُعاد؛ وفي الإســلام مخلوقٌ يســيره الله كما يشــاء، يوقفه أو يمدّه بمعجزة؛ وفي اليهودية تاريخٌ يســير نحو وعدٍ إلهي لا رجعة فيه؛ أما في الهندوســـية والبوذية فهو دائرة أبدية أو وهم ينبغي تجاوزه. وهكذا أدرك الإنســـــان، منذ البدء، أن الزمن ليس مطلقاً كما توحي ساعاتنا، بل نَسْغٌ يتغيّر بتغيّر وعينا به"

كان هذا الجزء من المقال المطول هو الجزء المحبب الى كيتي، لكن تومي كان له رأي آخر. كانت هذه السطور هي الأقرب الى قلبه:

- "ثم جاء الأدب الحديث، فحوّل الحلم إلى تجربة فكرية. في روايته "آلة الزمن" (١٨٩٥) فتح هـــــ. ج. ويلز بوابة الخيال العلمي، ومنذ ذلك الحين صــار السـفر عبر الزمن مرآةً لقلق الإنسـان من مصـيره: ماذا لو عدنا لنصــلح ما أفسـدناه؟ ماذا لو التقينا بأنفســنا في زمنٍ آخر؟ ماذا لو اخترنا ماضيا آخر، ومصيراً آخر، بل وأباً وأماً آخرين؟"

وكـان لســـــتيف رأي آخر. لقد رأى أن هذا الجزء هو الأكثر أهميـة والأقرب الى فهمه في المقال الذي أثار غيرته المكتومة باعتباره أقرب المنافســين الى مايك في مادة الفيزياء فوضـــع خطوطاً حمراء تحت هذه السطور:

- "لقد دخلت الفيزياء الحلم من بابٍ آخر. فــــآينشـتاين غيّر طبيعة الزمن حين جعله نسيجاً مرناً يمكن أن يتمدّد أو ينكمش. المسافر بسرعة

الضوء يعيش دقائق بينما تمرّ على الأرض عقود. والزمكان المنحني في نظريته العامة أتاح احتمال وجود الثقوب الدودية، تلك الأنفاق التي قد تصـــــل بين نقطتين في المكان والزمان، وإن كانت لا تزال في حدود المعادلات لا المختبرات. لكن الماضــي، على ما يبدو، يرفض التلاعب. فمفارقاتٌ من نوع "جدٍّ قُتل قبل أن ينجب" جعلت هوكينغ يضـع فرضـيته الشـهيرة: "الطبيعة نفسـها تحمي خط الزمن". في المقابل، فتحت ميكانيكا الكم نوافذ جديدة على غرابةٍ أكبر: ربما لا يُغيَّر الماضـــــي، بل يُفتح فرعٌ آخر من الكون يسـير في مسـارٍ موازٍ، وكأن كل قرارٍ نأخذه يخلق زمناً جديداً"

غير أن ماري افتتنت بالمقالة من أولها الى آخرها، فاشـترت أكثر من نســخة من الجريدة وضــعت إحداها قرب وســادتها وأعادت قراءتها مراراً وتكراراً حتى كادت تحفظ مقاطع كاملة منها وكان أكثر ما أحبّته هو خاتمة المقال:

"إن افتتاننا بفكرة الزمن ليس شـــغفاً بالعلم وحده، بل توقاً عميقاً إلى المصــالحة مع الذات، إلى تجاوز الخســارات، إلى الإحســاس بأننا نملك لحظةَ الخلق من جديد.

قد لا نشـهد مركبةً تعبر الماضــي أو المسـتقبل، لكننا، بالتفكير فيها، نقطع رحلةً أخرى نحو داخلنا، حيث الزمن الحقيقي يسكننا لا العكس"

٨

أثارت تلك المقالة زوبعة في المدرسة الثانوية، وبلغ الأمر ببعض الطلبة الى تسمية تلك الحلقة من الأصدقاء: مايك، كيتي، ستيف، ماري وتومي بـ "جماعة المسافرين عبر الزمن" وتسمية زعيمها مايك بلومبرغ بـ "قرصان الزمن النحيل"

من الغريب أن أقرب الأصدقاء الى قلبه وأعني كيتي كانت أقلهم اهتماماً بالنقاشات العلمية التي كثيراً ما دارت حول هذا الموضوع. لم تكن لتشغل بالها كثيراً بالتفاصيل النظرية عن إمكانية أو استحالة الفكرة. لقد كانت تذهب مباشرة، ودون تردد الى أنها معها بغض النظر عن كل وجع الرأس الفيزيائي والرياضي. لماذا؟

- "لأنني أحب هذه الفكرة، أعشقها، ولا أتصور وجود العالم من دونها. لا أريد التصديق بأن مصباح علاء الدين وطاقية الإخفاء وآلة الزمن مجرد أساطير وخيالات. لا بد أنها موجودة في مكان ما. إن استحالة وجود طريقة للسفر عبر الزمن سيكون ظلما وقسوة كبيرة، تماماً مثل عدم وجود الجنة! نعم، سأرحب بفكرة السفر الى تلك العصور الغابرة وملاقاة أبطالها حتى لو كان في ذلك خطر أن..."

- "اطمئني يا كيتي. لن أقتل جدي!"

٩

كانت كيتي تجهد، عندما يتحدث إليها بتفاصـيل علمية، للحفاظ على تركيزها والتظاهر بأنها تفهم كل شيء وعندما تبدي ببعض الاعتراضات، لا لشـيء إلا لإظهار اهتمامها، كان يغرقها بسيل من حجج مستمدة من الفيزياء والرياضيات فتسارع الى إعلان استسلامها، لكنه كان يدرك بأنها ما زالت متمسكة بأحلامها ويقينها وإن تظاهرت بمجاراته. إنه طفل وهي امرأة!

ولم يختلف الأمر كثيراً بعد زواجهما. كانت تعرف كيف تنصت بحب واهتمام، غير أن تلك الخطب الطوال والحجج والبراهين العلمية والفلسفية التي يسوقها كثيراً ما تنتهي بهذه الطريقة:

- "هل صدعت رأسكِ يا عزيزتي؟"
- "بل أنت الذي توجع دماغك. تعال. أعرف ما تحتاج اليه الآن"

ثم تفتح أزرار قميصها وتهمس:

- "هيا يا صغيري. أرح رأسك الصاخب المضطرب فوق صدري!"

وكان هذا بالضـبط ما يحتاجه في تلك اللحظة، بل وفي كل وقت يشعر فيه بأنه محاصر بالأسئلة والهموم أو الاقتراب من الاستسلام. ثم أنه كان يرفع رأسه إليها مثل رضيع شبِع:

- "حسناً أيتها الحكّائة الماهرة. هل لك أن تقصّي علي حكاية ما؟"
- "أمرك يا شهريار"

إن لها قدرة عجيبة على اسـتدراجه نحو منطقة اهتمامها؛ الى عوالم

الميثولوجيا والفنتازيا والخيال، فما أن تبدأ حتى يعتدل في جلسته وينصت منتشياً مسحوراً كما لو كان حقاً في حضرة شهرزاده.

- يحكى أيها الملك السعيد أن "رِفاتي" ابنة "كاكودمي" كانت عذراء على قدرٍ عظيم من الجمال والكمال، حتى إنه حين بلغت سن الزواج، رأى والدها كاكودمي أنه لا يوجد على الأرض من يستحقها زوجة، فمضى إلى الخالق نفسه، الإله براهما، يلتمس منه المشورة بشأن زوج مناسب لابنته.

وعندما وصلا، كان براهما منشغلاً بالإنصات إلى عرضٍ موسيقي تقدمه الأرواح الموسيقية السماوية، فانتظرا بصبر حتى انتهى العرض. ثم انحنى كاكودمي بتواضع، وقدم طلبه وطرح قائمة مختصرة بأسماء من يراهم مرشحين. عندها ضحك براهما بصوت عالٍ، وشرح أن الزمن يجري بشكل مختلف على المستويات المختلفة من الوجود؛ وأنه في الفترة القصيرة التي انتظراها في حضرته لمقابلته، كانت قد انقضت على الأرض سبعة وعشرون "تشاتور–يوغا" (أي سبع وعشرون دورة كاملة من الدهور الأربعة الكبرى).

وقال براهما للملك كاكودمي:

- أيها الملك، إن جميع من كنت قد عزمت في أعماق قلبك على أن تقبلهم أصهاراً لك قد ماتوا بمرور الزمن. لقد مضى سبعة وعشرون دهراً كونياً، وهو ما يعادل ملايين لا تحصى من سنوات البشر، وأولئك الذين وقع اختيارك عليهم قد رحلوا، وكذلك أبناؤهم وأحفادهم وسائر ذريتهم. حتى أسماؤهم لم يعد أحد يسمع بها. لذلك ينبغي أن تهب هذه الجوهرة

البكر (أي رِفاتي) لزوجٍ آخر، فقد أصـــبحت الآن وحيداً، وأصـــدقاؤك ووزراؤك وخدمك وزوجاتك وأقرباؤك وجيوشك وكنوزك، جميعها جرفتها يد الزمن منذ أمد بعيد"

أصـيب الملك كاكودمي بالذهول والاضـطراب حين سـمع هذا الخبر. غير أن براهما عزّاه، وأخبره أن فيشـــنو، الإله الحافظ، قد تجســـد على الأرض في صـــورتَي كريشـــنا وبالاراما، ونصـــحه بأن يزوّج ابنته من بالاراما.

عاد كاكودمي وابنته رِفاتي إلى الأرض، وهما يظنان أنهما لم يغادراها إلا منذ وقت قصـير. لكنهما ذُهلا لِما رأيا من تغيرات عظيمة. فقد تبدلت ملامح الأرض وبيئتها، وبفعل مرور سـبعة وعشـرين دهراً، كان مسـتوى التطور الروحي والثقافي للبشـــرية قد انحط عمّا كان عليه في زمانهما. ووجدا أن البشر قد تقلصت قامتهم، وضعفت قوتهم، ووَهَن عقلهم"

التقـت الابنـة وأبوهـا ببَـالارامـا، وتقـدمـا بعرض الزواج، فقبلـه. وتم الاحتفال بالزفاف كما يليق.

بعد أن تم الزواج، شعر كاكودمي أن واجباته الأبوية قد انتهت. فعمل بنصـــيحة براهما التي أســـداها له أثناء لقائهما، وتوجه شـــمالًا إلى جبال الهيمالايا، إلى بادريناث (المكان الذي ما زال يُعبد فيه نارا–نارايانا حتى اليوم)، لينصـرف إلى التأمل والممارسـات الزهدية، فانخرط "وفقًا لوصـية براهما، في رياضـات نسـكية قاسـية في ذلك المكان، وحين حانت سـاعة موته، فارق جسده البشري على ضفاف النهر، وانطلق إلى عالم الآلهة"

١٠

هل كان مايك مؤمناً حقاً، بعد كل شــيء بفكرة السـفر عبر الزمن كما رسمها التراث الإنساني حتى هذا الوقت؟

الجواب هو: كلا!

لقد كانت الفكرة تختمر في رأسه ببطءٍ عنيد ، يوماً بعد يوم، وسنة بعد أخرى حتى اتخذت شكلاً جديداً: الكرونونيت!

غير أنه لم يفصح عنها إلا لجده، جده الذي كان مستشاره الأول: حياً وميتاً على السواء!

نعم، حتى بعد موته المفاجئ الذي جاء بغتته، في هدوء عجيب، دون أمراض وأوجا ع، حتى حسبه واحداً من ممازحاته الكثيرة.

لقد ظل مؤمناً بأن الموت لم ولن يكون نهاية وجود انســان مثل جده، ليس بــالمعنى التقليـدي لخلود الروح بـل ببقـاء التـأثير والقـدرة على الاستحضار والحلم:

- "لا يموت الانســـان بتوقف فعاليات البيولوجية بل عندما لا يتذكره أحد أو يفتقده" هذا ما كان جده يردده على الدوام. لهذا فهو يتجاهل عمليا موت جده لأنه لا يعده غيابا قط!

حتى في أيام تحضـيره لرسـالة الدكتوراه (ولا حاجة لذكر موضــوعها) ورغم عشرات من حلقات النقاش مع زملائه وأساتذته وأصـدقائه، لم يكن يجد ملجأً يأوي إليه حين يشعر باليأس والتشتت وتبلبل الأفكار غير تلك العليّة بعينها.

- "لا تقنط يا صـــغيري" يقول له جده "أعرف أن ثمة عقول تمســـك بزمام الفكرة وقتاً طويلا، وأخرى تتســـرب منها كما يتســـرب الماء من الغربال. لكن الإصـرار والمنهجية يمكن أن يتغلبا على هذا الضـعف. ولا تنس المران. نعم، إن التجـارب والتمـارين يمكن أن تحققا مـا قـد يبـدو مســتحيلاً. حتى بعض الصـــفات التي يظنها البعض فطرية متأصـــلة بالولادة يمكن اكتســـابها بالمران: المرء مثلاً لا يولد شـــجاعاً أو كريماً أو بخيلا إلا فيما ندر!"

- "لكنني حائر بين أن أغوص عميقاً في تخصـــصـــي الدقيق وبين الضياع في متاهات الفلسفة، أعني فلسفة الفيزياء "

فضحك الجد وقال:

- "اعلم يا سـيدي أن ما من عالم أصـيل دون فلسـفة تقوده وترشـده. لقـد قرأت يومـاً إن التحـدي العلمي الأعظم يكمن في اختيـارك بين أن تحفر وتحفر عميقاً، مثل قندسٍ، في تربة تخصصـك الدقيق، فلا ترى إلا جزيئاته فتكون عالماً مبتكراً "عادياً" إن صح التعبير، وبين أن تحلّق عالياً في سـماء مجاله الأرحب مثل نسـرٍ يشـرف على المشـهد بأكمله– رغم تفويتك لبعض دقائقه– كي تتفلسـف. كي تسـتحيل الى عالمٍ عظيم. الى نجم ينير السماء الى الأبد!"

- "أشـعر أحياناً بأنهم يسـخرون مني لهذا السـبب بالتحديد.. ما زال البعض من زملاء المدرسة القدامى يسمونني بالفضائي!"

- ذلك لأن الناس يحســـبون أن نظام أفكارهم هو عينه نظام الأفكار "القويم" الذي يحاربون من يخرج عليه، بل نظام الطبيعة برمتها"

- "حتى أن بعض أساتذتي..."

- "اســـمع يا ولدي: لقد قرأت يوماً عن شـــمس الدين التبريزي قوله: يوجد في هذا العالم معلمون مزيفون أكثر عدداً من النجوم! فلا تخلط بين أشباه المعلمين الذين لا يفرقون عن الكراسـي التي يجلسون عليها، الذين اكتفوا بما حملوا من ألقاب وتحولوا الى مجرد ملقنين آليين لا يفعلون شيئاً ســوى إعادة ما قيل آلاف المرات بانتظار أجورهم في نهاية كل شـــهر، وبين المعلمين الحقيقيين. فالمعلم الحقيقي الصـــادق لا يرغمك على الدوران في فلكه ولا يتوقع منك طاعة عمياء، بل يعينك على أن تقدِّر نفسـك الداخلية وتحترمها. إن المعلمين الحقيقيين شـفّافون كالبلّور، يعبر نور الله من خلالهم"

- "لكنني أشعر بأنني أزداد حيرة وجهلاً"

- "هو هو هو! يا لك من محظوظ يا ولد!" يعود الجد الى مزاحه "هذا يعني انك ســتصــل الى مرحلة تدنو فيها من الجهل المطلق، و من يصـل إلى حافة الجهل المطلق، يوشـك أن يلمس المعرفة المطلقة! وهذا ما يعني في كل الأحوال حفاظك على تفوقك!"

١١

استيقظ في منتصف الليل وهو لا يدري هل أيقظته الريح التي صفّرت بين قضبان الشرفة، أم النداء الخافت الذي جاءه من زمن بعيد.

كانت الغرفة مغمورة بنور رمادي، بين يقظةٍ ونومٍ، كأنها قطعة من حلمٍ انسكبت على أرض الواقع ولم تجد طريقها إلى الزوال. جلس في فراشه، يحدّق في الساعة القديمة التي توقّفت عقاربها منذ أعوام، ومع ذلك ظلّت تدقّ في ذاكرته كل ليلة، كأنها وحدها تعرف أن الزمن لم يمت بعد، بل تغيّر شكله فحسب.

مدّ يده إلى المنضدة ليتناول نظارته، لكنه لمس شيئاً بارداً، كأنه زجاج ناعم ينبض بخفة. لم يكن هناك شيء. ومع ذلك، شعر بسطحٍ مستوٍ يفصل بينه وبين العالم. ثم لمح انعكاس وجهه على جدار الغرفة، لا في المرآة، بل في الهواء نفسه. وجهٌ أكبر من عمره، تسبح في عينيه صورٌ لم يرها منذ عقود: تعريشة الكرم في فناء البيت القديم، كلبه الصغير وهو يتقافز بين قدميه ويهز ذيله بمرح، وشال ابنته وهي تخرج من الباب للمرة الأخيرة.

كانت تأتيه في الأحلام أحياناً، لكنها هذه المرة جاءت بصمتها كله، بصورتها يوم ذهبت. لم تودّعه. لم تلتفت. كانت تمشي وراءه، ذلك الشاب الغريب الذي جاء من بلاد بعيدة، بعيون تلمع كحلم طفلٍ في أول مغامرة له.

يومها قال لها بصوتٍ منكسرٍ يكابر كي يظهر الصلابة:

- "الزمن يا ابنتي ليس لعبة تعيدين تشــغيلها أو تبدلين بطاريتها في كل مرة. إنه نهر نعيش فيه كما الأســماك. من يخرج من ضــفته يغرق. فلا تغامري بتركه"

لكنها رسـمت على وجهها الصـغير الجميل ابتسـامة أرادت أن تكون واثقة. ابتســامة صــبية تريد انتزاع الاعتراف بحكمتها وخبرتها في الحياة وقالت بصوت أوشك أن يخونها:

- "ومن يبقى في الضفة، يموت واقفاً"

ومنذ ذلك اليوم، لم يسـمع عنها شـيئاً إلا شـذرات من أخبار متقطعة: مركب غريب، مشــروع مجهول، ثم حادث غامض في عرض البحر، ثم صــــمت طويل. بعد عامين، ذهب الى المركز الذي اســـتدعوه إليه، ثم جاءوا إليه بالطفل الرضيع، ملفوفاً بملاءة بيضاء.

- "لســـنا متأكدين من موت ابنتك وزوجها يا ســـيدي" قال الموظف المكلف بالمهمة الحزينة "لكن لا أحد يعرف أين ذهبت. هي وزوجها... اختفيا"

الاختفاء كلمة لا تحتمل اليقين. أحس في البداية بالحزن، بالانكسـار، بالغضـــــب من ابنته التي تمردت عليه، ثم بالندم على تركها ترحل، لكن الصـبي تحول سـريعاً الى قطعة من روحه، بل المغزى من وجوده، حتى أنه كان ينتبه الى نفســــه أحياناً وهو يغالب رغبةً آثمة في أن لا ترجع الفتاة إليه. أن يبقى هذا الولد الى جانبه الى الأبد.

١٢

بيت قديم، بجدران تئنّ من الرطوبة ودرجات ســـــلالم تشـــتكي كلما صـــعدت عليها الأقدام. يدخل من الباب المغلق منذ دهور. إنها الرائحة ذاتها: مزيج من خشب قديم ونبتات ريحان يابسة في الزاوية.

سمع صدى صوتٍ غامض من الطابق الأعلى، صوتها. كانت تناديه مثل جنية بحر تغني في جزيرة بعيدة. كانت تدعوه باسمه الأول "آرثر" لا "يا أبي"!

صعد الدرج، لكنه شعر أن كل درجة تختفي حالما يضع عليها قدمه. لم يبق إلا الفراغ من تحته، وهو معلق بين الأرض والسقف، والزمن يدور حوله مثل دائرة مدوّمة تبتلع الضوء.

توقّف عند باب غرفتها. كان النور يتسرب من تحت الباب، دافئاً كأن الشمس تختبئ وراءه. فتح الباب فرأى نفسه يدخل مختبراً غريباً: أنابيب، أســـلاك، دوائر كهربائية، ولوحات من زجاج محفور عليها رموز تشـــبه الساعات. في وسط الغرفة، آلة ضخمة كأنها مزيج من مرآة ونافذة مائية.

كانت ابنته واقفة أمامها، ترتدي معطفاً أبيض، وشـــعرها مرفوع في كعكة كما كانت تفعل أيام الدراسة. نظرت إليه وقالت بصوت هادئ كمن يكلّم ذكرى:

- "تأخرت كثيراً يا آرثر. كان يجب أن تأتي قبل أن يتحرّك الزمن من مكانه"

أراد أن يقترب منها، لكن بينهما جدار من هواء ثلجي لا يُخترق. رفع

يده ليلمسه فوجد نفسه يرى من خلاله مشاهد متلاحقة: يوم ولادتها، يوم ذهابها الى المدرسة، يوم علمها السباحة، يوم سقطت من الدراجة وجرحت ركبتها، يوم سفرها، يوم حملوا إليه الطفل الصغير. كل شيء يحدث في اللحظة نفسها.

- "ما هذا؟"

سألها بصوت مبحوح فأجابت:

- "إنه الزمن حين ينكسر، يا آرثر. ظننته نهراً يسيل في اتجاه واحد، لكنه مرآة إذا نظرتَ فيها طويلاً رأيت وجهك "

اقترب أكثر. كانت الدوائر في الجدار تدور بسرعة، والهواء يهتزّ حتى صار مثل سطح ماءٍ يغلي.

قالت له:

- "لقد جئنا من هناك. أنا وهو. لكننا لم نستطع العودة. الآلة لم تكن كاملة. عندما حاولنا العبور، انقسم الزمن إلى شطرين، وبقي كلٌّ منا في جهة. هو في زمنٍ لا ينتهي، وأنا في زمنٍ لا يبدأ. والطفل... خرج من كليهما"

مدّ يده نحوها، فرأى أصابعه تغوص في الضوء. شعر بدفءٍ خفيف، كأنه يلمس وجهها للمرة الأخيرة.

ومدت هي الأخرى يدها. كانت تحمل لفافة رضيع بيضاء تفوح منها رائحة مسحوق الطلق.

- "خذه يا آرثر. خذه يا.. أبي". أنظر، إنه يشبهك" وضحكت وقالت "لا تنقصه سوى لحية صغيرة بيضاء وغليون من خشب البلوط حتى

يكون آرثراً صغيراً"

- "عودي، يا ابنتي. لقد كبرتُ كثيراً ولم يعد في العمر ما يكفي لأنتظرك"

أجابت بابتسامة ودمعة تترقق في عينيها:

- "بل أنا التي أنتظرك، في الجهة الأخرى من الزمان"

واستيقظ على صوت ارتطام خفيف. كانت الساعة التي توقفت منذ سنين قد هوت من الجدار، لكن عقاربها كانت تدور فجأة، تدور كأنها استعادت أنفاسها.

سمع خطوات خفيفة خارج الغرفة. فتح الباب فوجد حفيده واقفاً في الممر، شاحب الوجه، يقول وهو يحدق فيه:

- "جدي، لقد رأيتُ حلماً غريباً... كنتَ فيه شاباً، تمشي مع امرأة تشبه أمي التي في الصورة، وكنتُ أنا معكما، لكننا كنا في مكانٍ آخر... في زمنٍ آخر"

ابتسم الجدّ دون أن يجيب. شعر أن قلبه يخفق ببطء، كأنه يتهيأ لشيءٍ أكبر من الفهم. أمسك بيد الحفيد وسار معه نحو الشرفة.

كان الفجر قد بدأ يصعد ببطء، يخلط الضوء بالظلال على وجهيهما المتقابلين.

قال الجدّ بصوتٍ أقرب إلى الهمس:

- "هل تعرف يا صغيري، أن الزمن ليس ما نراه في الساعة؟ إنه ينام أحياناً في داخلنا، ويستيقظ حين نحبّ أحداً أكثر مما ينبغي"

نظر الحفيد إلى السماء، ثم إلى وجه جده، وسأله:

- "وهل يمكن أن نعود إليه متى ما شئنا؟"

فصمت الجدّ طويلاً قبل أن يقول:

- "ربما... إذا حلمنا بما يكفي من القوة"

١٣

كان يسـير في صـحراء ممتدة، لا شـيء فيها سوى رياح هادئة تحمل ذرات من نور بدل الغبار. العجيب أنه لم يكن يشــعر بالخوف أو الجوع أو العطش. كان الرمل الذهبي ينضــــغط تحت قدميه العاريتين دون أن تغوص فيه. لم يطل به الانتظار حتى لاحت له غرفة خضــــراء تظللها شـجرة عملاقة. كان الباب مفتوحاً فدخل دون اسـتئذان. كانت الغرفة من الداخل فسـيحة على غير ما تبدو من الخارج. ثمة جدول صــغير رقراق يخترق أرضيتها المكسوة بالعشب ويتلو أنغامه في سكينةٍ، والجدران مزينة بصـور أطفال يلعبون، تعرف فيهم على نفسـه وهو في حضـن رجل وامرأة في شرخ الشباب، ينظران اليه في حنان بالغ ويبتسمان. حانت منه التفاتة فرأى من بعيد ذلك الصـندوق الصـغير الذي يفترش دكةً من رخامٍ صـقيل بدت أشــبه بمذبح إغريقي أو نافذة مفتوحة على عالمٍ آخر. وعلى جوانبه ثمة كلمات واضحة كأنها محفورة على صخر أزلي:

- "أدن مني.. أنا آلة الذاكرة الأبدية... أُعيد لكم الحقائق لتســـتعيدوا السلام"

اقترب في ثقة. كانـت خطواتـه خفيفـة كـأنهـا محمولـة على الريح. لم يشــعر بالخوف، بل بسـكينة عميقة، وبإحســاس بأن قلبه يُفتح على وعدٍ جميل. وحين لمس الجهاز، لم يتفجر منه الدم ولا الصــــراخ، بل انبثقت صور مضيئة كأحلام الأطفال.

- "أرني أول لحظة حب في التاريخ"

تمتم مسحوراً فانكشفت أمامه مشاهد بدائية: أمّ تحتضن وليدها الأول تحت سماءٍ ملبدة بالغيوم. لم تكن كلمات، بل كانت مشاعر خالصة. دموع الفرح الأولى، ضحكة طفل، قبلة أم. وشعر أن تلك اللحظة البعيدة ما تزال تسري في دماء كل إنسان حي الى اليوم.

اكتشف فجأة أن الغرفة تعج برجال ونساء وأطفال وشيوخ. عرف من بينهم جدّه وهو يبتسم ويغمز له بعينه.

تقدّم رجل من بين الجمع وقال بصوت مرتجف:

- "أرني أخي الذي أعدموه قبل أن يبلغ العشرين"

فانفتح المشهد عن أخٍ يلوّح مبتسماً قبل رحيله، كأنه يرسل سلاماً أخيراً. بكى الرجل، لكن دموعه نزلت كما ينزل المطر على أرض عطشى، فخرجت منها زهور تتراقص في غنجٍ وترسل عبيراً مدوّخاً أنزل على قلبه راحة لم يعرفها منذ زمن لا تدركه الأعوام.

ثم نادت امرأة مسنّة بصوتٍ واهنٍ:

- "أرني زوجي حين كان شاباً"

فإذا بالصورة تكشف عن وجه حبيبٍ يضحك في صباحٍ بعيد. مدت المرأة يدها نحوه، فبدت كأنها تمسح على وجنته من جديد، وضحك الجميع لأن دموعها هذه المرة كانت دموع امتنان لا حزن.

توالت المشاهد، ليس عن الخيانة والقتل والجشع، بل عن الرحمة والشجاعة والمحبة، عن لحظاتٍ صغيرة شكّلت قوام إنسانية البشر:

يد فلاح يطعم جائعاً.

معلم يعلّم طفلًا أول حرف.

شاعر يكتب بيتًا في حضرة ليلٍ ثقيل، فيضيء قلوب أمةٍ برمّتها.
أمٌ في ريعان الصبا وهي تلقم ثديها لطفل يغفو في أمان.
جندي يرفض إطلاق النار على بريء.
طفل يطعم قطة لم تفتح عينها بعد.
كل لحظة كانت كزهرة تنفتح وتبعث في الهواء عطراً سحرياً جديداً.

ووقف أمامهم، وفي عينيه نور لم يكن فيها من قبل، وقال بصـــــوت عميق كأنه قادم من بئر عميقة:

- "أحبتي. هذه ليســـت آلة لكشـــف العار، بل مرآة لتذكيرنا بأننا كنا قادرين على الحب منذ البداية. إن التاريخ ليس فقط سيوفًا ودماءً، بل هو أيضـاً أيادٍ ممدودة وأحلام محروسـة بالرحمة. هذه الحقيقة سـتجمعنا بدل أن تفرقنا، وستجعل منّا بشرًا جديرين بالغد"

فصــــفّق الناس من أعماق قلوبهم، وتعانقوا كما لو كانوا أفراد عائلة واحدة اكتشفوا جذورهم المشتركة.

وللحظةٍ خاطفة، رأى الأرض كلها تتوهج كجوهرة، والسماء تنحني كأمّ لتبارك أبناءها.

والتمعت الدكة الرخامية بضياء أحمر شفيف. وقرأ على جانبها:

- "أنا آلة الذاكرة الأبدية... أُعيد لكم الحقائق لتســـتعيدوا الســـلام.. ولكن لكل شيء ثمنه!"

عندها تراجع الضـوء شـيئاً فشـيئاً، وأخذ يسـتيقظ ببطء، وعلى شـفتيه ابتسامة. لم تكن هذه مجرّد رؤيا، بل وعداً يتردّد في صدره:

- "يمكن للحقيقة أن تشفي، كما يمكن لها أن تجرح"

الفصل الثالث

مطاردة الساحرات

١

- "حسناً يا فيليب. لن يصعب علينا الوصول الى مايك هذا. أول خطوة لتحقيق ذلك هي جمع أكبر قدر من المعلومات عنه وعن الدائرة المحيطة به. هل اتصلت بمكتب التحقيقات؟"

- "طبعاً يا سيدي، وبوكالة المخابرات، ووزارة الدفاع، ووزارة الأمن القومي و..."

- "أتمنى أن لا تكون قد أشرت الى طبيعة القضية التي نتعامل معها"

- "شبهات تتعلق بمخالفات مالية"

- "أحسنت أيها الشاب. أرى أنك تتعلم سريعاً. سيكون لك شأن عظيم معي"

- "هذه شهادة أعتز بها يا سيدي"

- أه فيليب" ارتمي على الأريكة دون أن يخلع حذاءه وقال كأنه يحدث نفسه "لقد كان أسبوعاً طويلاً. أشعر بإرهاق لا يوصف. أتعرف يا فيليب، أنا لا يهمني التعب الجسدي، فقد مررت وأنا في عمرك بأيام طوال لم يغمض لي فيها جفن وأنا أزحف في الوحل أو أكمن في الخنادق وسط دوي المدافع ولعلعة الرصاص. لكنني أشعر اليوم بوطأة مسؤولية هائلة تهدّ قوة أي إنسان. أنا أشعر بأنني أدير حرباً كونية لم يسبق لها مثيل"

- "أتمنى أن تكون هذه آخر حرب نخوضها"

- "هراء! لا عالم دون حروب. إن الحروب هي الرياضة التي تحافظ على بقاء الأمم" واعتدل قليلاً وأضـــاف بنبرةٍ واثقةٍ "أنا لا أعني فقط تلك الحروب التقليدية التي تخاض بالصـــواريخ والدبابات والطائرات بل وحتى الأسلحة النووية، مثل هذه الآلات والتقنيات ستستحيل شيئاً فشيئاً الى مجرد خردة، لعب أطفال. لكن جوهر الحرب، النزاعات نفســها، التكالب على الغنائم، الإنحيازات، الكراهية لمجرد الكراهية، سيبقى ما بقي البشر. إن النزاعات على الحدود، على المياه والثروات، على الآثار، التسميات، بل وحتى أصل الأكلات والمشروبات يمنح الحياة ديناميكية من نوع ما. هل تفهمني؟ يجب أن تستمر هذه النزاعات لتستمر الحياة. أظن أن نبي المسلمين قال شيئا عن نعمة الاختلاف، لا اعرف ماذا قال بالضبط لكنه قصر تلك النعمة على أبناء دينه، غير أنني أرى أن الخلاف بين البشر، أيا كان دينهم ومعتقدهم، هو نعمة من نوع ما!"

ابتسم فيليب وقال بحذر:

- "لكن البشـــر لن يعودوا يوســـخون أيديهم في مثل هذه النزاعات. أليس كذلك؟ أعني أن الجيوش الآلية ستقوم بكل العمل القذر نيابة عنهم"

- "لست متيقناً من هذه النقطة. أظن أن القتال نفسه سيبقى لعصور قادمة متعة يصعب على البشر التخلي عنها، حتى لو استعاضوا عنه بقتال افتراضـــي. ألا ترى أن أحب ألعاب الفيديو الى الأطفال والمراهقين بل حتى الكبار هي ألعاب القتال التي ينفجر فيها الدم وتتناثر فيها الأشلاء؟ كلا، أنا لا أريد رجالا آليين. أريد بشراً حقيقيين لكن مبرمجين على الطاعة المطلقة، على أن يؤمنوا بما أريد منهم أن يؤمنوا به، وعلى

فعل ما أريده منهم، وبقناعة تامة"

- "هل يعني هذا أنك تفضل توظيف ميول البشر وغرائزهم للتحكم فيهم"

- "تماما، مثل ما يفعله رجال الدين والزعماء العقائديون، إن صحت المقارنة"

- "وما نفعله نحن"

- "بالتأكيد. لسنا ملائكة في هذا الخصوص. إننا نفعل ما يفعلون، لكننا نفعله بطرق أكثر احترافية وعلمية، وإلا فما فائدة جيوش الأكاديميين الذين ننفق عليهم المليارات؟"

وغلبه النوم وهو يتحدث فأخذ فيليب يتأمله بذلك الإعجاب الذي تخالطه الرهبة من تلميذ أمام أستاذٍ يمثل الكمال بعينه.

لقد تجاوز الستين من عمره، غير أن جسده ما يزال قويًا منتصباً كأن عضلاته لم تُنهكها السنين. يقف بصلابة تجعل الناظر يحس أنه أمام عمود من صخر لا تهزه الرياح. ملامحه حادة، جبينه عريض، وعيناه عميقتان تلمعان ببريق حادّ يوحي بالقوة واليقظة الدائمة. شعره الممزوج بالشيب يزيده مهابة لا ضعفًا. إن مظهره العام يُذكّر بتماثيل الإله الروماني مارس، إله الحرب: وجه صارم، هيبة عسكرية، وقامة مستقيمة متأهبة كأنها خُلقت للقيادة. إنك لتحس وأنت تتأمله في وقوفه وجلوسه أو سكونه، بل حتى وهو مضطجع على الأريكة وقد خرجت قدماه، بحذائهما اللامعين، من طرفها، بأنك أمام رجل يتهيأ لمعركة قادمة وشيكة.

إن في داخله خليطا من العزيمة الراسخة والذكاء الحاد والرغبة

الجامحة في ترك أثر خالد، كأنه يعيش ليكتب اسمه في سجل الخالدين. طموحه يطغى على كل اعتبار، فلا يتردد في توظيف المكر أو القســـوة إذا وجد أن المجد يســـتحق التضـــحية. وهو في كل ذلك لا يفتقر الى المبررات العقلية والأخلاقية التي لا يشـــك فيها. ورغم أنه، في لحظات السـكون، يلوح في داخله نوع من الصـراع بين إنسـانيته ورغبته الجامحة في التفوق، لكنه سرعان ما يحسم أمره لصالح الطموح. يتقن قراءة الناس واستغلال نقاط ضـعفهم، وفي داخله إيمان راسخ بأن العظمة لا تُنال إلا بالدهاء والقوة معاً. إنه باختصـار شـخص خارق الذكاء لكنه يضـيق من صغر دوره مقارنة بأشخاص لا يراهم أنداداً له، مثل "السيد الرئيس" نفسه، زميله في الدراسـة الذي وجد الطريق مفتوحاً أمامه، رغم محدودية تفكيره، لأنه ينتمي، ببسـاطة، الى النخبة الحاكمة، لأنه يضـطجع في أحضـان الدولة العميقة!

وتمتم جونسـون بشـيء في نومه. واسـتدار فيليب خارجاً على أطراف أصـابعه، وخفف الأضـواء ثم أقفل الباب في هدوء شـديد ونظر للموظفين فخطرت في باله عبارة أســـتاذه عن الرجال المبرمجين فخاطبهم بلهجة آمرة لكنها هامسة:

- "لا تزعجوا مســـتر جونســـون بأية أوراق أو اتصـــالات حتى من الرئيس نفسه!"

٢٨

لم تمض سوى نصف ساعة أو أقل حتى استدعاه جونسون:

- "فيليب. تعال إلي في الحال؟

كان يبدو في أتم الحيوية والنشـــاط كما لو نام لســـاعات طوال. لكن فيليب اعتاد على روية ســـيده وهو يغط مفتوح العينين في أحيان كثيرة، في إغفاءات مفاجئة لا تدوم إلا بضــــع دقائق.. إغفاءات من تلك التي يسـميها الأطباء بإغفاءة أديسـون – لحظاتٍ قصـيرة كأنها إعادة تشـغيلٍ للجهاز العصبي.

- "ســـيدي. أظن بـأنـك تحتـاج الى المزيـد من الراحـة والاعتنـاء بصـــحتك. أعتقد أن من المناســـب أن تتمتع بإجازة قصـــيرة بعد كل هذا الجهد"

- "لا وقت لدينا يا فيليب يا ولدي– واسمح لي أن أناديك هكذا"

كان فيليب، منذ أن رشحوه للعمل في خدمته قبل خمسة أعوام، يطيعه كما الجندي المتفاني أو مرافق الفارس وحامل أســـلحته في العصـــور القديمة ولا يسـأل عن الدوافع والأسـباب لكنه، وقد امتلأ صـدره بالامتنان لهذا الشرف حتى كادت دموعه تخونه، تجرأ هذه المرة وسأله:

- "سـيدي. ما دمت قد ناديتني بابنك، وهذا شـرف كبير، هل تسـمح لي بأن أسألك عن سبب حماسك غير المسبوق، بل تفانيك في تتبع هذا الموضوع بالذات؟ هل يستحق اختراع مثل هذا كل هذا العناء؟"

- "فيليب. الأمر أكبر من مجرد اختراع عظيم يضــاف الى غيره. إنه

سلاح مدمر يغير وجه العالم؟"

- "سلاح؟"
- "نعم سلاح للإبادة الشاملة للـ.. تاريخ!"
- "لكن هل يمكن محو التاريخ؟ إن تشويه التاريخ نفسه يصبح يوماً بعد يوم عملية شاقة في عصر زالت فيه كل الحواجز بين الناس وبين المعرفة والقراءة الحرة و.."
- "لكنهم، في الجوهر، أميون. إنّ تعلّم القراءة والكتابة، بل التخرج من أرقى الجامعات، لا ينفي عنهم الأمية الفكرية. يكفي أن تعرض لهم بضع نماذج من جرائم الآخرين وأفعالهم القذرة حتى يطمئنوا الى صحة معتقداتهم ونصاعة تاريخهم على وفق مبدأ "لسنا وحدنا الأوغاد"!

أرأيت الملايين من حاملي الألقاب والدرجات العلمية، بل من العلماء الكبار في مجال اختصاصهم، وهم يتسابقون للجلوس في الصفوف الأمامية للكنائس والجوامع والمعابد كي يتلقوا جرعاتهم الأسبوعية من الأوهام أو الشحن العاطفي، المتطرف في كثير من الأحيان، ثم يخرجون منها فرحين منتشين مليئين بالإيمان والحماس.. نعم. كل متلقٍ أمي!"

- "هذا صحيح. هناك أجيال كاملة تحفظ عن ظهر قلب الكثير من الوقائع والشخصيات والأحداث السياسية لكنها..."
- "آها! أ رأيت؟ إن أنظمتنا التعليمية كلها لا تركز إلا على التاريخ السياسي. لكنك تعرف أن التاريخ السياسي ليس كل شيء، بل هو الأتفه والأكثر كذبا مقارنة بتاريخ الاقتصاد والعلم والفلسفة والفن والعمران. لكننا، كأنظمة، نحتاج دائما الى تغليب التاريخ السياسي، وهذا ليس سراً

ولا عيباً نخفيه: إنه مشوق، مثير، سهل الهضم، مفضّل لدى الجماهير وقابل للتوظيف لغرض سَوقها وتدجينها"

- "أتفق معك تماماً يا سيدي. التاريخ السياسي هو الصانع الأكبر للوعي الجمعي"

- "أحسنت. خذ الحروب مثلاً: ما أن تنتصر أو تدعي الانتصار ويؤيدك مؤرخوك المعاصرون في ادعائك حتى تتناسل من حولك جيوش ممن يصورون جرائمك مآثر عظيمة وقسوتك لمسات انسانية حانية وما تلفظته من هراء حكما ومواعظ ومعجزات لغوية تستحق الكتابة بماء الذهب ثم لن تمضي غير أجيال قليلة حتى يستحيل ما سطّروه الى حقائق مقدسة قد تخسر حياتك اذا شككت بها"

- "لكننا يا سيدي نحظى ببدائل أخرى غير الأنظمة التعليمية. هناك مثلاً الصحافة الحرة"

- "وهذه أيضاً جزء من المنظومة الشاملة: أتظن أن الصحافة ليس لها سوى تلك الفنون التي يدرسونها في الجامعات؟ كلا يا ولدي. إن فنها الأعظم والأخفى والأكثر تأثيراً هو قدرتها على إلباس الوقائع والأحداث الثوب الذي تريده ويختصر الطريق الى عقل القارئ والمشاهد والمستمع– أعني عقله الباطن والعقل الجمعي للشعوب، وهو الذي يظهر بالمناسبة على شكل ما يسمى بالرأي العام. إنها تبخّر ما يقع تحت أيديها من أخبار، صحيحة كانت أم ملفقة، وكأنها تغليها في مرجل هائل، ثم تعود لتكثفها كما في أنابيب التكثيف وأجهزة التقطير التي نراها في المعامل والمختبرات، ثم تعود لتقتطع منه ما تشاء، ثم تعيد صياغته وفق ما يلائم

مصــالح ملاّكها وتوجهاتهم السـياسـية أو الاقتصــادية، ثم تبسِّـطه بحيث يســهل هضــمه، ثم تضــيف له الألوان والنكهات المغرية، ثم تضــع له الأسماء والعناوين التسويقية الجذابة. وهي تلجأ الى الاستخدام الغامض المربك للغة كواحد من التكتيكات الناجحة. ألا ترى كيف يســـتخدمون كلمة "تحييد" أو "تصفية" بديلاً عن كلمة "قتل"؟ و يطلقون على "المجزرة" اســم "العملية النوعية" وكيف يســتخدمون صــفة الرهائن أو الأســرى أو المحتجزين لوصــف نفس المجموعة من التعســاء؟ يقال أن الصـــحافة الفرنســـية كتبت في عناوينها بعد هروب نابليون من منفاه بجزيرة ألبا "الوحش يهرب من ألبا"، وعندما اقترب من فرنســـا كتبت "نابليون يهرب الى فرنســـا"، ولكنه عندما دخل فرنســـا فعلاً كتبت "الامبراطور يدخل البلاد!"

ساد صمتٌ قصير، ثم قال فيليب متردداً:

- "أعترفُ يا سيدي بأن حديثك أصــابني بالحيرة. إنك تهاجم التاريخ وتتهمه بالكذب ثم تدعو الى حرب للدفاع عنه!"

- "صـــحيح جداً، وليس في هذا أي تناقض. ألا يلجأ الناس منذ عصـــور الى إيهام أطفالهم بوجود ســـانتا كروز؟ ألا يلجأ الأطباء الى طمأنة مرضـــاهم وهم يعلمون تمام العلم بأن أيامهم معدودة؟ الكذب دواء مرّ، لكنه دواء على أي حال!"

- "ولكن لماذا هذه المبالغة في التأكيد على خطورة هذا الســلاح الى درجة تستدعي مثل هذا المؤتمر الذي لم يسبق انعقاده في تاريخ البشرية"

- "ذلك لأن الجميع يعرفون أن وجود جهاز قادر على كشف التاريخ

الحقيقي وتصـــويره بلا رتوش ســيكون له آثار خطيرة على مســتويات متعددة:

إنه أولاً خطر على السلطة السياسية، فكثير من الأنظمة والحكومات تبني شـــرعيتها على روايات تاريخية محرّفة أو منتقاة على أقل تقدير. وجهاز كهذا ســيكشــف الأكاذيب المؤسِــســة، من أســاطير قومية إلى "بطولات" ملفّقة، مما قد يؤدي إلى انهيار شـــرعية وتفكك دول وأنظمة كثيرة، بل جميع الأنظمة والحكومات في العالم، وهذا سيقود الى فوضى شاملة لا يريدها أحد.

ثم أن الأديان والتقاليد تســتند غالباً إلى روايات ماضــية، وكشــف الحقيقـة المجردة، دون رتوش ومونتـاج، لتلـك الأحـداث قـد يؤدي إلى أزمات إيمانية ضخمة، وانقسامات أو صراعات دموية بين أتباع العقائد، بل وبين القائمين على تلك العقائد بوصـفهم كتلة واحدة، وبين الرافضـين لها.

ولا تنس أن الشــعوب تبني هويتها على ســرديات مشــتركة: أمجاد، تضحيات، رموز وبطولات. فماذا سيحدث إذا كشف الجهاز أن كثيراً من ذلك زائف أو مختلف عما اعتُقد؟"

- "فراغ وضياع للهويات. وفقدان للرابط الرمزي الذي يجمعهم"
- "أرأيت؟ وعندها لن تنهار الحكومات والعقائد فقط، بل المجتمعات برمتها. ولا تنس أيضا الخطورة التي تهدد الذاكرة الفردية. فالذاكرة البشرية ليســت آلة تصــوير، بل عملية انتقائية تحفظ ما يخدم العيش والتكيف، ولو صار الفرد قادراً على إعادة مشاهدة ماضيه بدقة مطلقة، فقد يتعرض

إلى صدمات نفسية مروعة قد تقوده الى الجنون، مثل مواجهة خيانة كان يظنها حباً، أو ظلم لم يكن يدركه حينها".

- "لكنه، من جانب آخر، قد يحقق حلم العدالة المطلقة، حيث يمكن استعادة أي جريمة أو خيانة أو فساد"

- "ربما حدث هذا، لكنه يعني أيضاً انهيار الخصوصية المطلقة، لأن كل فعل مسجّل، حتى أكثر اللحظات حميمية. وماذا عن الفلسفة والأساطير؟ إن البشر ليتغذون على الأساطير والرموز بقدر ما يتغذون على الحقائق. فإذا عُرّي الماضي تماماً، قد نصبح أمام عالم بلا أساطير، بلا فن، بلا أوهام مبدعة، وهو ما قد يقتل الخيال والإبداع نفسه. بكلمة أخرى: هذا الجهاز سيتركنا عراة من كل ما ألبسنا عقولَنا على مر الزمان وسيكون أشبه بسيف ذي حدّين؛ يَعِدُ بتحرير البشر من الأكاذيب، لكنه قد يحرمهم من الأكاذيب الجميلة التي بُني عليها وعيهم وهويتهم"

- "كلامك يا سيدي يجعلني أكثر حماساً في ملاحقة هذا الاختراع الشرير والقضاء على صاحبه واستئصال خطره"

- "أما القضاء على صاحبه فلست راغباً فيه. أظن أنني معجب بهذا الشاب وعبقريته. ربما سعى غيرنا الى تصفيته لأسباب أخرى، هناك الكثير ممن يعتبرونه خطراً على معتقداتهم. لا تنس تلك الجماعة التكفيرية التي أعلنت عن مسؤوليتها عن ذبح ذلك العالم في الشرق الأوسط بسبب حديثه عن هذا الاختراع وآفاقه المدمرة بالنسبة إليهم. أنا أفضل الوصول معه الى حل تفاوضي من نوع ما، أما إذا رفض.. فأنا

أتركه لك!"

- "ثق بي يا سيدي"
- "أثق بك بالتأكيد. أما عن الجهاز نفســـــه فأظن أنك معي في أنه أخطر من كل أسلحة الدمار الشامل؟"
- "نعم. أخطر بكثير منها جميعاً"
- "وأيهم أفضل لنا، أن نملكه أم ندمره؟"
- "أن نملكه بالطبع، ومهما كان الثمن"

وابتسم جونسون وقد أيقن بأنه كسب مقاتلاً صليبياً يفعل كل ما يؤمر به في سبيل القضية العظيمة.

لكنه لم يقل كل شـــيء... لم يتحدث عن طموحه الحقيقي: امتلاكه، هو، للجهاز!

٣

استيقظ في قاعة واسعة بلا سقف، يلفها ضباب كثيف خانق كأنه تنفّسُ أرض متفحمة. الأرض التي كانت تحت قدميه مثل مرآة سوداء تعكس وجهه الذي غابت ملامحه، كأن الزمن محا هويته. في وسط القاعة، على منضدة آبنوسية ذات أقدام منحوتة على هيئة كائنات أسطورية، كان "الجهاز". إنه صغير بحجم كف اليد، لكنه يبعث وميضاً أحمر قاتماً، يشبه قلب بركان متقد يخفق في العتمة. وعلى جوانبه ثمة كلمات محفورة بالسواد:

- "أنا آلة الحقيقة. سَلني عن أي سرّ، وسأجعله سلاحاً في يديك!"

اقترب بخطوات واثقة، لا خوف في قلبه، بل نشوة انتصار. قال لنفسه:

- "هذا ليس حلماً، بل نبوءة تحققت أخيراً"

مد يده ولمس الجهاز، فانفتحت أمامه شاشة عملاقة، وكأنها نافذة على كل العوالم، كل الأزمنة، كل البشر.

قال بصوت هامس تشوبه الرهبة:

- "أرني أسرار الزعماء"

فتدفقت الصور كالعواصف، صورٌ لمؤامرات، وخيانات، وفضائح لم يُسمع بها أحد من قبل. ابتسم، لأنه اكتشف نقاط ضعف الجميع: كل حاكم، كل قائد، كل عالم، كل فنان... جميعهم واقفون أمامه، عراة كيوم الدينونة، مكشوفون بلا استثناء.

صاح أحد الحضور وهو يرتعش خوفاً وبرداً:

- "أرنا الحقيقة عن أنفسنا"

فتتابعت الصور مثل شريط سينمائي يدور بسرعة مدوّخة. صور لكل تاريخ خفي، كل كذبة، كلّ دمٍ أُريق باسم الشرف، كل خيانة، كل نذالة وجُرم.

كان العراة المتطوحون هلعاً على خلفية من نارٍ هائلة لا صوت لها، يبكون، يتوسلون لإيقاف الشريط، ويغطون أعينهم وآذانهم كي لا يروا ويسمعوا. لكن الشريط لا يتوقّف.

أما هو، فكان يرى في كلّ مشهدٍ فرصة جديدة للهيمنة. فرصة تملؤه بنشوة ضارية. كان كل ضعفٍ وكل خيانة قطعة في لعبة شطرنج كونية، يستطيع تحريكها بإصبعه كما يشاء.

وتوالت المشاهد:

ثمة دبلوماسي يتآمر على بلاده.

جنرال يخطط لحرب سرية.

قاضٍ يظلم بريئاً بلا أدنى ندم.

امرأة تذبح زوجها النائم.

عجوز يغتصب طفلة سبّية.

ملثم يفرغ رصاصاته في أجساد يلقيها الى النهر.

طيار يضحك وهو ينشر السموم على القرى.

وكل صورة كانت تُنقش في ذهنه، فتشكل له خريطة مطابقة تماماً للواقع. وامتلأ قلبه شيئاً فشيئاً بقوة باطشة هائلة. لم يعد في الكون كلّه ما

يقف أمامه. حتى خياله نفسه اندمج بالجهاز وصار قطعة منها، يريه ما يريد، ويتحكم بمن يشاء، يزرع الحرب أو السلام حسب هواه.

ابتسم وقال بصوتٍ ملؤه الزهو:

- "ها هو العالم كله طوع بناني.. لقد رُفِعت الحُجب من أمام ناظري. لا سرّ يستعصي عليّ، ولا كذبة تفلت مني. سأعيد رسم التاريخ كما أريد!"

ثم ارتفعت الأصوات من كل مكان، صراخ الناس وعويلهم، كان بعضهم يتشبث بأقدامه متوسلاً فيركلهم ليختفوا في الهواء مثل ظلال سوداء. كانت أصواتهم مجرد ضوضاء بعيدة، لأنه يعلم أن الحقيقة، ومعها القوة المطلقة، باتت بين يديه.

في اللحظة الأخيرة، تزلزلت القاعة نصف المظلمة، واندلعت نيران صغيرة أخذت تأكل الستائر الحمراء التي لم ينتبه الى وجودها قبل ذاك. وتصاعد من باطن الأرض أنين مكتوم وكأن العالم كله يتلوى تحت قبضته ، واختلط بضحكاته المجلجلة، وارتفع صراخه المجنون: "أنا.. أنا سيدكم الأعلى!"

واستيقظ وهو يلهث من الإثارة، وعلى فمه ظلال ابتسامة غامضة:

- "آه.. أي حلم!"

٤

يعرف الكثيرون ممن تجاوزوا عمر الشـــباب أن غزارة شـــعر الأذنين واحدة من علامات التقدم في السن. لم يكن جونسون يحفل كثيراً بالشيب الذي يغزو ما تبقى من شـعر رأسـه، لكنه كان ينزعج من تلك الشـعرات النافرة من صيوان أذنه فاعتاد منذ وقت طويل على نتفها بيده رافضاً في كل مرة اقتراحات حلاقه بإزالتها بهذه الطريقة أو تلك وهو يؤكد لـه أنها غير موجعه ويمكن أن يكون لها تأثير طويل الأمد. لقد كان يشعر بمتعة خفية وهو يتخلص منها بطريقته الغريبة التي اكتســـبها مع الأيام حتى غدت جزءاً من سلوكه اللاواعي: إنه يتحسس الشعرة بأطراف أصابعه ثم يحصـرها بين باطن سـبابته وظفر ابهامه ثم يسـحبها بثبات وبطء حتى تخرج دون وجع ثم يقربها من عينه ليتأكد من لونها وطولها ثم يتحسسـها بلسـانه أو يقضـمها بقواطعه قبل أن يصـفها على المنضـدة أو فوق ورقة أمامه حتى إذا تجمع عدد منها أفرغها في منفضـــة سـجائره وأشـعل فيها النار!

وهو لا يفعل ذلك في حضــور الآخرين إلا إذا رفع الكلفة بينه وبينهم، مثل شخص لا يخشى أن يكشف علامات قلقه وضعفه البشري أمام من يثق بـه ويعده واحداً من مقربيه. ورغم أنـه لا ينســـاق الى ذلك الطقس الغامض إلا عندما يكون ســـاهماً أو غارقاً في التفكير، لكنـه في كل الأحوال سرعان ما ينتبه لنفسه ويتوقف عن ذلك.

وكان فيليب واحداً من هؤلاء الثقاة. فكان يرى فيه شبابه وخليفته وابنه

الذي لم يولد له.

كان جونسون قد ألح عليه ليجلس الى جانبه في الصالة شبه المظلمة في بيته، حيث تتراقص ألسنة اللهب في المدفأة وتلقي على الجدار ظلالًا تتداخل مع وجهيهما كأنها صور لوجوه غريبة من الماضي. كان الثلج ما زال ينزل بغزارة على الشوارع التي بدت شبه خاوية وأضواء الأبراج الشاهقة والإعلانات الضوئية ما تزال تضيء الليل. أما في الغرفة فكان الليل هادئاً، إلا من أنفاس متقطّعة وأزيز الحطب الذي يتآكل في النار.

- "تبدو متعباً هذه الليلة يا سيدي. كأن شيئاً يثقل روحك أكثر من جسدك"

أخذ جونسون الكأس دون أن يشرب، وتأمل الزجاج وكأنه يرى فيه تصاوير حياته، وقال بصوتٍ خافتٍ:

- "متعب؟ التعب كلمة هزيلة أمام ما أشعر به. أتعرف يا فيليب، أنني أحسد أحياناً أولئك الذين ينهارون سريعاً، الذين يصرخون ويولولون. إنهم على الأقل يفرغون ما في قلوبهم. أما أنا فقد بنيت حولي جداراً سميكاً، جداراً لا يُرى لكنه أثقل من الصخر"

وسكت لحظة، محدقاً باللهب، ثم تنهد وكأنه قرر أخيراً أن يفتح صندوقاً ظل مغلقاً لعقود.

- "أتدري يا فيليب. أنا لم أخبر أحداً من قبل، لكنني سأقول لك الليلة. كنت طفلاً بائساً يا فيليب، مجرد صبي يتيم بين أقرانه، يركض في أزقة فقيرة. كنت أحلم بمكانٍ أوسع من الحيّ الضيق، بمائدة لا تخلو من طعام، بأب يعود في المساء محملاً بالهدايا لينحني عليّ في حنان.

لكن كل ما كان لديّ هو صمت أمّ متعَبة، وظهر محنيّ لأبٍ رحل باكراً، وعيون أقارب ينظرون إليّ نظرة الشفقة الممتزجة بالاحتقار. كنت أسمعهم يتهامسون: "هذا الصغير لن يصير شيئاً... لن يحمل يوماً اسماً له وزن"

واسترسل كمن يحدث نفسه:

- "كنت أرتجف ليلاً تحت البطانية البالية، أردد في داخلي أنني سأكسر نبوءاتهم، أنني سأصعد مهما كانت السلالم محطمة. ومع كل صباح كنت أضع على وجهي قناعاً من الصلابة، وأدفن ضعفي في الأعماق. غير أنّ الضعف لا يموت، بل يتحوّل إلى ندبةٍ تلسعك كلما لمستها الذاكرة"

ورفع عينيه إليه وقد بدا فيهما بريق حزين.

- "وكبرت يا فيليب، أثبتُّ تفوقي في الدراسة وحصلت على منحة مكنتني من أن أقف نداً لكل من ولد وفي فمه ملعقة من ذهب، وكنت مصرّاً على أن الأبواب ستفتح لي على مصراعيها، وأن العالم سيعترف بجهدي.

لا تظن يا فيليب أنني بقيت ذلك الصبي الذي يُقصى عن الصفوف. لا... لقد قاتلت. صعدتُ في المراتب درجةً بعد درجة، وكل درجة كانت كالصخرة، لا تعطيك موطئ قدم إلا بعد جهد ودموع. نعم، حصدت مواقع كان غيري يظنها بعيدة المنال، وانتزعت اعترافاً لم يكن أحد ليمنحه لي طواعية. لكن... صدّقني، حتى هذا لم يكفِ. الطموح عندي كوحش جائع، كلما التهم غنيمة طلب أخرى. لا يشبع، لا يهدأ، ولا يعرف كلمة

اكتفاء.

لم أكتف بالدراســـة واتباع خطى غيري. كنت أغيض أقراني بنمط تفكيري الخارج عن المألوف. أتعلم يا فيليب. يمكنك بســهولة شـديدة أن تكون ناجحاً، مجرد ناجح في عملك مثل الملايين الآخرين بأن تفعل مثلهم. لكن لكي تكون عظيماً أو متميزاً على الأقل فإن أمامك قاعدتين ذهبيتين ســواء أكنت تريد أن تكون طباخاً ماهراً أو كاتباً مبدعاً أو فناناً مرموقاً أو لاعب شـطرنج متميزاً: أن تعرف أولاً كل القواعد والطرق التي رسمها مَن جاؤوا قبلك، ثم أن تبدأ بالخروج عليها حال إتقانها!"

- "هذه نصيحة لا تقدر بثمن يا سيدي"

- "نعم يا فيليب، لقد جلست على مقاعد لم يكن مسموحاً لأمثالي أن يقتربوا منها، ومع ذلك حين أعود إلى نفسي في الليل، كنت أسمع صوتاً داخلياً يهمس في أذني: ليس هذا ما خُلِقتَ له... أمامك ما هو أعظم... حطّم هذا السياج! لا تتوقف هنا!

لم تثبط الآلام وخيبات الأمِل من عزيمتي. كم من مرة وقفت على أعتاب منصـــبٍ ظننت أنني ســـأناله بجدارة، فإذا به يُنتزع مني ليُعطى لآخر أقلّ موهبة وأقلّ عزيمة، لكن كل مواهبه هي أنه يملك اســـماً، أو مالًا، أو قرابة نافذة. صدّقني... لا شيء أشد إيلاماً من أن تبذل عُمرك في السعي، ثم ترى ثمرة السنين تُقطف أمامك وتُلقى في يد غريبة"

وضغط على الكأس حتى بدا أن الزجاج سيتحطم بين أصابعه.

- "أفهمك يا ســيدي. إن الظلم ليترك في القلب ندوباً لا يمحوها الزمن. لكنك رغم ذلك وقفت على قدميك، وبنيت لنفسك اسماً عظيماً"

- "اســماً يأتي دائماً في التســلســل الثاني أو الثالث. ولكن ما قيمة الاسـم على كل حال حين تصـحو كل ليلة لتجد نفسـك وحيداً؟ لقد كنت دوماً بين الجموع، لكنني في داخلي ظللت غريباً. الوحدة ليست أن يجلس المرء بلا رفيق، بل أن يظل غريباً حتى وسط الأصـدقاء. هذا إن وجدوا. أتعرف؟ حتى نجاحاتي الصــغيرة لم تَسُــد تلك الفجوة. كنت أضــحك، أتحدث، أتصــرف كأنني راضٍ... لكن في أعماقي كان ثمة صــبي يتيم يصرخ: "أنا هنا! ألا ترونني؟ ألا تمنحونني ما أستحق؟

فيليب... أتعرف ماذا تعني الوحدة حين تُصـبح عادة؟ إنها تتحول إلى جلدٍ جديد، يغطيك حتى تنسى كيف كان شعورك قبلها. أُحس أحيانًا أنني محكوم بالتيه إلى الأبد، وأنّ حتى أقرب الناس لي ليســوا ســوى مرايا صــامتة، لا تعكس ســوى صــورتهم هم. ربما لهذا أبني قســوتي وأخبئ دهائي، فالدهاء والقسوة هما الدرعان الوحيدان اللذان يصدان طعنات هذا العالم".

- "لكنّك الآن تتكلم" قال فيليب "وهذا وحده خرق لهذا الجدار. ربما لم تجد من يُصـغي إليك من قبل، لكنك لسـت مضـطرًا للبقاء سـجين هذا الصمت"

- "ربما تكون محقاً... غريب أن يظل المرء صـامتاً لأعوام طوال، ثم في ليلة واحدة يجد نفسه يبوح بكل شيء. لكنني أشعر براحة غريبة، كأن الكلام يحررني من ثقل صدري"

ارتشف رشفة صـغيرة من كأسـه، وأغمض عينيه كمن يستحضـر صـوراً بعيدة.

- "يا إلهي" غاص في تأملاته "كم أفتقد تلك السنوات التي لم أعشـها قط... طفولة بريئة بلا خوف، شـــباباً بلا انكســـارات، نجاحاً يعترف به الجميع دون أن أحتاج للتوســـل أو التدبير. لكن ما الجدوى من الحنين؟ إنني صــرت ما أنا عليه الآن، وهذا الوجه القاســي ليس إلا قناعاً للطفل الذي لم يُسمح له أن يكبر طبيعياً"

ثم رفع رأسه وقال:

- "فيليب... لست أبحث عن الشفقة، ولا أريد تعاطفاً رخيصاً. كل ما أريده أن يُقال يوماً: جونســون لم يكن عابراً. لقد وُجد، وكافح، وترك أثراً. أريد أن أتأكد أنني لم أُعش هذه الحياة سدى"

نهض فيليب ووقف على رأســـه. كان يهم بأن يضـــع يده على كتفه مواسياً لكنه تراجع في اللحظة الأخيرة.

- "سـيذكرك الناس طويلاً يا سـيدي لأنك واجهت العالم رغم قسـوته. وأحسـب أنّ من يملك شـجاعة البوح بما في داخله، يملك أيضـاً أن يحفر اســـمه في ذاكرة الآخرين.. وأن يكون صـــخرة تســـتند عليها أجيال من الشباب"

رفع جونسون رأسه ببطء، وفي عينيه خليط من الإصرار والامتنان.

- "لعلّك على حق... أو لعلّي فقط أردت أن أســمع هذه الكلمات من أحد. لا أدري، يا فيليب، لكنني أُحس الليلـة أنّني أقلّ وحـدة ممـا كنـت عليه قبل ساعة"

ســـاد صـــمت لم يقطعه ســـوى هســـيس النار وهي تلتهم ما تبقى من الحطب. جلس الاثنان جنباً إلى جنب، كأنهما حارســـان على بوابة ذاكرة

قديمة، أحدهما يحمل جرحه، والآخر يحمل له المرآة التي تكشفه دون أن تُجرّده. وقال فيليب دون أن يدير رأسه ناحيته:

- "إذن أنت لا تنظر إلى ما حققت، بل إلى ما لم تصل إليه بعد... كأنك تسير في طريق بلا نهاية"

- "نعم. طريق بلا نهاية. لقد خُلقتُ كي أسير وأسير، يخال إلي أن قلبي سيتوقف عن الخفقان في اللحظة التي أتوقف فيها عن السير"

كان فيليب يشعر، برغم مرارة الحديث، بسعادة لا حد لها. إن قلبه يكاد يثب منه فرحاً وامتناناً. لطالما رأى في السيد جونسون صورةً عليا تتجاوز حدود البشر العاديين. كان يراقبه في خطواته، في نبرات صوته، في قدرته على ضبط المواقف وكسب احترام الآخرين، فيغدو كل تفصيل من تفاصيله درساً يترسّخ في ذهن التلميذ المتعطّش للارتقاء. ولم يكن يخفي إعجابه، بل كان يشعر داخله أنّه يقف أمام نموذج شبه مقدّس، لا يملك حياله إلا الطاعة والاتباع، كأنّ ما يقوله جونسون قانون غير قابل للنقاش. ومن هنا، تولّدت في نفسه رغبة لا تهدأ، وطموح يكاد يلتهمه التهاماً في أن يسلك الدرب نفسه، أن يتشرّب الصفات ذاتها، وأن يبلغ يوماً المقام الذي يقف فيه جونسون الآن.

كان يحلم أن يراه الآخرون بعين الإجلال نفسها التي ينظر بها هو إلى سيده. وكان يعتقد أنّ المثابرة والإصرار كفيلان بأن يفتحا له الطريق، ولو بعد زمن طويل، ليجلس في المقاعد التي لا تُمنح إلا للقلة، ويصير بدوره قدوة مطاعة لمن يأتي بعده. وهكذا ظلّ يعيش بين الإعجاب الصادق والانجذاب الروحي من جهة، وبين الطموح العارم الذي لا يعرف

التراجع من جهة أخرى، حتى غدا جونسون بالنسبة إليه ليس مجرد رجل، بل غاية ومسار حياة.

وعب جونسون كأسه دفعة واحدة ومسح تلك الظلال عن وجههوصوته وقال بنبرة متجددة استعادت صلابته القديمة:

- "ولكن كفانا ثرثرة يا فيليب. لنعد الى العمل. أين وصـــلنا في لعبة مطاردة الساحرات هذه؟"

٥

عاد فيليب الى منزله منتشـــياً، فخوراً بالثقة التي أولاها إياه أســـتاذه، وبالحكمة التي شــعر بأنها تملأ رأســه وظلت أصـــداء حديثهما ترن في ذاكرته وهو يضع رأسه على الوسادة. لكن تلك المشاعر سرعان ما أخلت مكانها لضـــرب من القلق الغامض والخوف الذي لا يعرف كنهه شـــديد وظل يتقلب في فراشه: ترى ماذا ينتظره، بل ماذا ينتظر العالم، وما الذي سيتكشف عنه الغد لو صار هذا الجهاز حقيقة واقعة؟ لم يدرِ متى غلبه النعاس.

رأى نفسه في قاعة مظلمة واسعة، سقفها يختفي في غياهب العتمة، وأمام الجدار البعيد، على قاعدةٍ رخاميةٍ باردة، كان الجهاز الصغير يلمع كأن داخله شــمس حبيســة. لم يكن أكبر من صــندوق معدني، لكنه بثّ وهجًا أزرقَ جعل الجدران ترتجف.

وفجأة، ارتفع صوت آليّ أجشّ، كأنه صادر عن حنجرة الزمن نفسه:

- "أنا آلة الحقيقة... سلني عن أيّ مشـهد في التاريخ، وسأريك إيّاه كما كان."

اقترب وهو يشـــعر بثقل خطواته كأن الأرض تتحوّل إلى وحل وقال بصوت مرتجف:

- "أرني مقتل يوليوس قيصر"

فإذا بالمشــهد يتكوّن أمامه كلوحة حيّة فوق شــاشــة عملاقة: مجلس الشـــيوخ، الخناجر تلمع، والدماء تنهمر على الرخام. لم يكن في الأمر

أسطورة ولا مجاز... كان الدم دماً حقيقياً، والمشهد فوضوياً. لا شكسبير هنا، بل صرخات تصمّ الأذن.

صاح آخر من بين الحشود التي ظهرت فجأة حوله:

- "أرنا صلب المسيح!"

فانشقّت الشاشة عن صليب مرفوع في الأفق، تتدلى عليه جثةٌ يلفّها نورٌ غريب، والجموع تتهامس بين مصـــدّق ومكذّب. بعضـــهم بكى، وآخرون ضـحكوا بمرارة. وفجأة اندلعت الفوضـى كأن النار اشـتعلت في بحر من الزيت.

وتوالت الأصوات، كل منها يطالب بمشهد جديد:

- "أرنا كيس دنانير يهوذا!"
- "أرنا حريق نوتردام!"
- "أرنا من ذبح أسرة عمي!"
- "أرنا وجوه ركاب الطائرة وهي تصطدم ببرج التجارة"
- "أرنا مقتل جان دارك"

وكانت المشـاهد تتدفق بلا رحمة، كل لقطة تسـقط قناعاً، كل دقيقة تهدم جداراً من اليقين.

رأى مدنًا تشـتعل لأن الناس لم يحتملوا ما رأوا. رأى معابد تتهاوى تحت صـرخات المؤمنين وقد تزلزلت معتقداتهم. رأى تماثيل تُحطم في السـاحات، وأعلاماً تُداس تحت الأقدام، وأمهات يلطمن وجوههن حين شاهدن أبناءهن يموتون في حروب قيل لهن إنها مجيدة.

ثم سـمع الجهاز يخاطبه وحده بنبرةٍ مهيبةٍ كأنها تأتي من داخل

جمجمته:

- "أتريد أن ترى حقيقتك أنت؟"

اختض جسده كله. حاول أن يقول لا، لكن لسانه انعقد. وفي اللحظة التالية ظهر المشـهد: كان يقف عند باب غرفة نصـف معتمة، يصـوب مسـدسـه ويطلق النار على رأس امرأة احتمت بزاوية الغرفة. خيّل له أنه يعرفها بشـكل غامض، فصـرخ: "لا! هذا لم يحدث!" لكن المشـهد كان واضـحاً كالشـمس، لا يحتمل تأويلاً ولا إنكاراً؛ إنها راقدة على الأرض، وخيط من الدم يسيل من رأسها.

سـقط على ركبتيه، ورأى من حوله بشـراً يصـرخون، كل واحد يواجه ماضـيه بلا رحمة. لا أحد ينجو، الكل يكتشـف خيانته، كذبه، ضـعفه. العالم كله غرق في عاصفة من الصراخ والدموع.

ثم عاد الصوت الجهوري يدوّي في القاعة:

- "لقد أعطيتكم الحقيقة... أما أنتم، فماذا ستفعلون بها؟"

وانفجر المكان بضوء أبيض متوهج كاد يعميه.

أفاق وهو يلهث، وقطرات العرق تتسـاقط من جبينه. كانت الغرفة هادئة والليل في منتصفه. مد يده الى كأس الماء وأطال الشرب:

- "الحمد لله... لم يكن إلا حلماً"

غير أن خوفاً ثقيلًا ظلّ جاثماً على صدره:

- "ماذا لو كان الغد يخفي لنا جهازاً كهذا حقاً؟"

الفصل الرابع

تقاطع الدروب

١

في زقاق جانبي من سوق المدينة القديم، ثمة متجر صغير تضيئه مصابيح صفراء باهتة، علقت على بابه لافتة مكتوب عليها بخط باهت: "اسحق رامان. تجارة الحاسبات ومستلزماتها". لم يكن المتجر فخماً، بل تتراكم فيه العلب الكرتونية على الرفوف والجدران، كأنها صناديق أسرار مغلقة على عوالم مجهولة. وبين صفوف الأجهزة اللامعة، كان يجلس مسيو رامان، تاجر إلكترونيات من أصل فرنسي قضى نصف عمره بين مفاتيح لوحاتها وأسلاكها الملتفة. رجل في منتصف الخمسين، بصلعة صغيرة وقامة نحيلة قصيرة ووجه تتقاطع فيه ملامح الجدّ والتعب، تطل منه عينان يقظتان اعتادتا أن تريا ما وراء اللمعان الظاهري للأشياء.

في مساءٍ يوم شتويٍ بارد، دخل الفتى النحيل إلى المحل. عيناه لا تستقران من فرط الدهشة. اقترب من جهاز حاسوب حديث ذي لونٍ أسود لم يره من قبل معروض على الطاولة الأمامية، مدّ أصابعه المرتجفة ليمسح الغبار الخفيف عن سطحه، ثم جلس أمامه كمن يجلس أمام مرآة تكشف المستقبل.

قال الفتى بصوت تخالطه الرهبة:

- "هل تعلم يا مسيو رامان؟ أشعر وكأني جالس أمام عقل خارق، عقل يعرف كل شيء، أسرع وأذكى من أي إنسان. أظن أن هذه الآلات ستغنينا يوماً عن الكتب، عن المدارس، عن الأطباء، بل ربما عن الحكومات نفسها!"

ضحك مسيو رامان ضحكة قصيرة، ثم شبك أصابعه فوق المكتب وقال:

- "ما أكثر أحلامكم أيها الشباب! تتوهمون أن هذه الصناديق الصغيرة هي مفاتيح الجنّة. صدّقني يا صديقي الشاب: إنها آلات صماء، لا تفكر ولا تحلم، بل تنفذ ما يصدر إليها من أوامر فقط"

ارتبك الفتى، لكنه لم يتراجع. في داخله كان يسمع صوتاً خفياً يهمس قائلاً:

- "لا، لا بد أن تكون أكثر من مجرد آلة. كيف لجهاز صغير أن يُخزّن مكتبات العالم كله إن لم يكن عقلًا جباراً؟" واندفع يقول:

- "لكنها تفكّر يا سيدي! انظر كيف تحل المعادلات وتكتب النصوص وتعرض الصور. أليس هذا تفكيراً؟"

أجاب مسيو رامان وهو ينهض ببطء، ثم يدير الشاشة ليُري الفتى جدولاً معقداً:

- "هي لا تفكر، بل تحسب. لا تخترع شيئاً، بل تعيد ترتيب ما يُعطى لها. لو أمرتها بأمر خاطئ، ستطيعك وتعطيك نتائج خاطئة. أما عقل الإنسان، ففيه الخيال والحدس والإبداع... وهذه أشياء لا تفهمها الآلة."

ساد صمت قصير، لم يُسمع فيه سوى أزيز المراوح الصغيرة داخل الأجهزة. ثم قال الفتى بعناد طفولي:

- "ربما يصح هذا في الوقت الحاضر. لكنني متأكد أنها ستتطور. ستصبح يوماً مثلنا، بل أفضل منا. سنتحدث معها، وستفهمنا. ربما نرى

يوماً أجهزة تُشخّص الأمراض وتكتب الشعر وتضع القوانين".

ابتسم مسيو رامان ابتسامة حزينة، وعاد الى الجلوس:

- "تقول هذا لأنك لم تر الوجه الآخر. نعم، هناك علماء يعملون ليل نهار على تطويرها، لكن هناك أيضاً رجال أعمال يخططون للاستغناء عن آلاف الموظفين لأن الحاسوب أسرع وأرخص. وهناك حكومات تستخدم البرامج لمراقبة أنفاس الناس وحركاتهم. هل هذا هو المستقبل الجميل الذي تتوقعه؟"

أطرق الفتى رأسه قليلًا، ثم قال بصوت خافت:

- "الخطأ في البشر لا في الآلات، أليس كذلك؟"

هزّ مسيو رامان رأسه موافقًا:

- "بالضبط. التقنية بريئة في ذاتها، لكن البشر هم من يلونونها بخير أو شر. أنا أبيع هذه الأجهزة على أمل أن يستخدمها الناس في التعلم والعمل والإبداع. لكنني رأيت أيضاً من يشتريها ليخترق خصوصيات الآخرين أو ليخزن ملفات في غاية الأذى للآخرين"

تأمل الفتى وجه الرجل، فرآه مزيجًا من الحكمة والإنهاك. للحظة شعر أن هذا التاجر ليس مجرد بائع، بل شاهد على عصر كامل. جلس على الكرسي المقابل، وراح يتأمل بإعجابٍ متاهات الأسلاك المتشابكة وكأنها شرايين مدينة مستقبلية، ثم قال:

- "أشعر أحياناً أننا نسابق الزمن. كل يوم أسمع عن سرعة أكبر وذاكرة أكبر وحجمٍ أصغر. هل يمكن أن نصل إلى لحظة لا نستطيع فيها اللحاق بما نصنع؟"

ارتسمت على وجه مسيو رامان ابتسامة مُرة، وقال وهو يحدّق في العدم:

- "هذا هو السؤال الذي لا يطرحه كثيرون. نحن نظن أننا أسياد التقنية، لكن في الحقيقة هي التي تفرض إيقاعها علينا. كل جيل يتوهم أنه يقودها، لكنه يكتشف متأخراً أنه يجري وراءها لاهثًا. ومع ذلك، يبقى الإنسان حراً في قراره: إما أن يكون سيداً لهذه الآلات أو عبداً لها".

غاص الفتى في صمته. وتنازعت في داخله صورتان: صورة المستقبل البهي المشرق حيث يعيش الناس متصلين بشبكات من نور، وصورة أخرى قاتمة حيث البشر مراقبون مقيدون بشاشات مضيئة لا يملكون منها فكاكاً. كان عقله عاجزاً عن التوفيق بين الحلم والكابوس.

وحين نهض ليغادر، التفت نحو مسيو رامان وسأله بصدقٍ وبراءة:

- "وأنت يا مسيو، بعد كل هذه السنين في بيع الحواسيب، هل تحبها؟"

ابتسم مسيو رامان ابتسامة طويلة هذه المرة، وقال:

- "أحبها كما يحب المزارع فأسه. هي أداة، لا أكثر ولا أقل. لكنني أحب ما تتيحه من احتمالات، وأخشى ما تحمله من مخاطر. لذلك أتعامل معها كما يتعامل المرء مع شفرةٍ ذات حدّين. بيد ماهرة تقلّم الأشجار، وبيد أخرى قد تُسفك الدماء"

خرج الفتى إلى ليل المدينة البارد، وقد ازدحم رأسه بالأسئلة. رفع بصره إلى السماء، وتخيّلها شاشة سديمية تحوي مليارات النجوم، كل نجم ملفٌّ مخزّن في حاسوب كوني عظيم. شعر للحظة أن مصيره ومصير

جيله سيتوقف على الكيفية التي سيستخدمون بها هذه الأدوات.

أما مسـيو رامان ، فقد بقي في متجره، يعدّ أرباح يومه، ويطفئ الشاشات واحدة تلو الأخرى. لكنه في داخله كان يردد:

- "ليت هؤلاء الصغار يدركون أن الآلة لا تصنع عالماً أفضل إلا إذا صُقلت قلوب البشر أولاً"

٢

مضت أعوام طوال منذ تلك الأمسية الشتوية التي خرج فيها الفتى من متجر مسيو رامان مثقلًا بالأسئلة. تغير العالم من حوله، كما تغير هو نفسه. صار اليوم في منتصف الثلاثينات، أنهى دراسته الجامعية في علوم الحاسوب، والتحق بشركة ناشئة في مجال البرمجيات ثم ارتقى فيها بسرعة البرق حتى صار مديرها التنفيذي، وها هو اليوم رجل أعمال ناجح، مليونير يحلم الشباب بمحاكاة نجاحاته. ومع كل خطوة، كان يشعر أنه أقرب إلى تلك الأحلام التي راودته يوم كان مراهقاً يحدق في شاشة متواضعة في سوق قديم.

لكن شيئاً من تلك الأمسية ظل يطارده: فقد ظلت كلمات مسيو رامان ترنّ في ذاكرته مثل جرسٍ خافت: تحذيراته من الوجه الآخر للتقنية، من الخطر الكامن في يد من يسيطر عليها. كان كلما أنجز برنامجاً جديداً أو صمّم تطبيقًا يساعد الناس على تسهيل حياتهم، يتساءل في سرّه: "هل نحن نصنع عالمًا أفضل حقًا، أم ننسج بأيدينا قيوداً جديدة؟"

في أحد الأيام، حين كان عائداً إلى مدينته لقضاء إجازة قصيرة، ساقه الحنين إلى الزقاق القديم. لم يصدق عينيه حين رأى أن متجر الحواسيب ما يزال قائماً، متشبثاً بجدرانه الحائلة الألوان وسط زحف المتاجر الحديثة. اللافتة الباهتة لم تتغير، والمصابيح الصفر ذاتها، والرفوف المكتظة بأجهزة غدت أقل بريقاً مما يراه في المتاجر الأخرى وسط المدينة.

دخل بخطوات مترددة، فاستقبله المشهد نفسه: صناديق مكدسة، أسلاك متشابكة، ومصابيح صفراء باهتة. خلف المكتب جلس مسيو رامان، وقد أثقلته السنون، لكن عينيه بقيتا تحملان ذلك البريق الحذر نفسه. رفع رأسه فرأى الشاب، تأمله لحظة، ثم قال مبتسماً:

- "يا إلهي! أهذا أنت يا ولدي؟ لقد صرت رجلاً"

اقترب الشاب وعانق الشيخ، وشعر بدفء غريب يشده الى جذوره الأولى. جلس على الكرسي نفسه الذي جلس عليه قبل سنوات، لكنه هذه المرة لم يكن فتىً حالِماً، بل رجلاً يحمل في داخله تجارب وانكساراتٍ وأفكاراً متضاربة.

- " كيف حال تجارتك يا سيدي؟ أعرف أن السوق واسع ومربح"
- "نعم، إنه كذلك، لكنه" وتنهد في حزن.
- "ما المشكلة إذن؟"
- "العمل ضعيف ومتقلّب، يوم نكسب جيداً، وأيام تمرّ بالكاد نبيع قطعة أو اثنتين"
- "هل السبب قلّة الزبائن؟"
- "الزبائن موجودون، لكن أسعار الأجهزة تتغيّر بسرعة، والمنافسة شرسة. نربح قليلاً ثم نخسر أكثر"
- "يبدو الأمر مرهقاً بالنسبة لك"
- "نعم، مرهق ومحبِط، ومع ذلك لا سبيل إلا أن نصبر ونواصل"
- "آسف لسماع ذلك. ما أعرفه هو أن الطلب على الحواسيب ومكوناتها مستمر، سواء لأغراض شخصية، تعليمية، أو مهنية. ثم إن

التطور السـريع يعني ظهور تقنيات جديدة باسـتمرار، وهذا يفتح سـوقًا دائمًا للترقية والتحديث. هذا عدا إمكانية الاسـتفادة من قطاعات متعددة: بيع أجهزة مكتبيـة أو محمولـة وتجهيز مكونـاتهـا، وخـدمـات الصـيـانـة والدعم. ولا تنس أن الازدهار في مجالات الذكاء الاصطناعي، الألعاب، والبرمجة يزيد الحاجة إلى حواسيب قوية"

ضحك العجوز وقال وهو يهز رأسه:

- "إنك تتحدث يا صـديقي بلغة كبار رجال الأعمال، لا بمنطق بائع تجزئة محدود الموارد مثلي. إن الأسعار تتذبذب والقطع الإلكترونية تتأثر بسرعة بسعر الصرف والعرض والطلب وأزمات سلاسل التوريد. كما إن التقدم السـريع وظهور الأجهزة الجديدة كل يوم قد تُسـقط قيمة المخزون القديم بسـرعة. ثم إن المنافسـة العالية وامتلاء السـوق بالمتاجر التقليدية والإلكترونية يضغط بشدة على هامش الربح. ولا حل في هذه الحالة سوى توفر رأس مال جيد لتأمين مخزون متنوع ومواكب للجديد"

قال مايك موافقاً:

- "أفهم كل ذلك يا سـيدي. وأنا حزين بسـببه" وأطرق قليلاً ثم قال ليغير مجرى الحديث: "مسـيو رامان، أتتذكر حديثنا قبل أعوام؟ كنت تقول إنها مجرد آلةٍ صـمّاء عاجزة عن التفكير والابتكار، ولا تملك عقلاً أو روحاً. وكنت تنظر إليها على أنها أشـبه بآلة حاسـبة متطورة، مهمتها معالجة الأرقام وتنفيذ الأوامر، وأنها مطيعة تماماً: تعطي نتائج صـحيحة إذا أُدخلت الأوامر صـحيحة، وتخطئ إذا كان المدخل خاطئاً. لم يكن ذلك رأيك أنت فقط. كان الوعي العام يركّز آنذاك على القدرة الحسـابية

والسـرعة والدقة، ولم يكن يخطر في البال أن الحاسـوب يمكن أن يمتلك عقلاً أو خيالاً. حتى أكثر الفلاسـفة تفاؤلاً كانوا يجادلون بأنها مجرد آلة متطورة، لكن الآلة لا تفكر، بل تحاكي خطوات التفكير البشـري دون وعي. يومها لم أقتنع تماماً، رغم اعتقادي بقوة حججك وبأنك كنت أقرب إلى الصواب"

ضحك مسيو رامان ضحكة متعَبة وقال:

- "وهل تغير رأيك؟ وكيف تراها أنت الآن بعد أن صـرت في قلب هذا العالم؟- لقد كنت أتابع أخبارك"

هنا تنهد مايك وحك رأسه وقال:

- "حسـناً. لا أخفي عليك أن نظرتي قد تغيرت بعض الشـيء. أنني أراها سيفًا ذا حدين. لقد صـارت تتعلّم من أخطائها، سـاعدتُ في تطوير تطبيقات سهّلت حياة الناس، جعلت التواصل أسرع، والعمل أكثر فاعلية. وصـارت تترجم بدقة وتكتب بلغةٍ أقرب إلى البشـر، وتقرأ النصـوص وتلخّصها، ترسم لوحات وتكتب القصص وتؤلف الموسيقى. ما كنا نحلم به صـار يحدث فعلاً. لكنني في الوقت نفسـه رأيت كيف تُسـتخدم الخوارزميات للتلاعب بالعقول، وكيف تُباع بيانات البشـر كما تباع السلع. أشعر أحياناً أننا نبني شبكة عنكبوتية ضخمة تحاصرنا جميعاً، ونحن نظن أنها أجنحة ترفعنا إلى السماء"

- "لكن، ومهما حدث وقيل يبقي هناك تحفظ كبير: الإبداع والابتكار ما زالا خاصية بشرية، وما تفعله تلك الآلات هو تقليدٌ مدهش، لا أكثر".

- ربما. لكن التصور العام عن الكومبيوتر انتقل من كونه آلة صماء

إلى شــــريك معرفي قد يبتكر أو يبدع بطرق غير متوقعة. لقد تحول الى منظومة ذكية قادرة على التعلم والإنتاج، تُشــبه التفكير والإبداع البشــري إلى حد مذهل"

نظر الشــــيخ إلى مايك نظرة طويلة، ثم مدّ يده إلى جهازٍ قديم على الرفّ، مسح عنه الغبار بحنوّ وقال بصوتٍ متعبٍ لكنه مشعّ بالحياة:

- "هل هذا "تفكير" حقًا، أم مجرد محاكاة متقدمة جداً؟ وهل ما يولّده الكومبيوتر وذكاؤه الاصــطناعي يُعتبر "إبداعًا" بالمعنى الإنســاني، أم أنه إعادة تركيب؟ لكن الســـؤال الجوهري الذي ما زال مفتوحًا: هل "يفكّر" الحاســـوب حقًا، هل بلغ مرحلة التفكير المســـتقل والتفريق بين الخير والشر؟ هل يمكن أن يمتلك إرادة وضميرا؟

ـ "أخشى أن تلك الأسئلة التي كانت ضرباً من الخيال العلمي والتأمل الفلســفي الســابق لأوانه قد أخذت تطرق أبوابنا بشــدة وتطالب بإجابات ســريعة ومحددة. أشــعر أحيانًا أننا مجرد ركّاب في قطار جامح، لا أحد يعرف إلى أين يمضي"

- "لكن، هل تظن أن بإمكاننا أن نوجّهها أم أن الأمور قد خرجت من سيطرتنا؟"

ساد صمت بدا فيه المتجر نفسه وكأنه يتأمل في مغزى هذا الحديث. ثم رفع العجوز رأسه وعيناه تشعان بمزيج من القلق والحماسة وقال وهو سارح وكأنه يجيب عن السؤال الذي طرحه بنفسه:

- "نعم، يمكننا أن نوجّهها ما دمنا نملك الشـــجاعة أن نقول لا. لا لكل اســتغلال، لا لكل رقابة جائرة، لا لكل اســتخدام يحوّل الإنســان إلى

رقم في قاعدة بيانات. التقنية وحدها لا تفرض شـيئًا، لكن الصـمت أمام سوء استخدامها هو الذي يمنحها سلطانًا علينا"

ارتجف قلب الشـاب، كأن كلمات الرجل أيقظت فيه شـيئًا دفينًا. تذكّر زملاءه في الشـركة، وكيف اندفعوا بلا تردد نحو أي مشـروع مربح حتى لو كان على حساب خصوصية الناس. تذكّر أيضاً أحلامه الأولى، حين كان يظن أن الحاسـوب سـيجعل العالم أكثر عدلاً وجمالاً. الآن، وهو يجلس أمام مسـيو رامان، شـعر أن الاختيار لا يزال قائماً: إما أن يكون مجرد ترس في آلة عملاقة، أو أن يحاول أن يجعل من التقنية جسراً نحو حياة أكثر إنسانية.

جلسـا طويلًا يتحدثان، يتبادلان الحكايات عن الماضـي والمسـتقبل. كان الشـاب يرى في وجه مسـيو رامان ملامح أبٍ حكيم أكثر من كونه تاجراً، وكان مسيو رامان يرى في عيني الشـاب بريق الأمل الذي لم يزل ممكناً. ثم قال الشـاب وهو يبتسـم ابتسـامة خجلى كمن يدلي باعتراف صغير:

- "لقد تغيّرت كثيراً يا سـيدي. لقد وصـلت يوما ما الى الاعتقاد بأن الحاسوب عقل خارق سيغنينا عن كل شـيء. لكنني صـرت اليوم أعرف أن القيمة ليسـت في الجهاز، بل في اليد التي تمسـك به والقلب الذي يوجّهه"

ابتسم مسيو رامان بدوره، وقال بنبرة رضا:

- "ربما كنت رجلاً عجوزاً لا يلاحق التطورات لكنني ما زلت مؤمنا بالدرس الذي وددتُ أن أزرعه فيك يومها. الحمد لله أنك أدركته قبل أن

يفوت الأوان."

- "ربما يا سيدي. لكن من يعرف ما ستأتي به الأيام؟"
- "نعم. من يدر...أح أح أح"

وانتابته نوبة طويلة من السعال الذي اهتز معه جسده النحيل.

- "ما بك يا صديقي العجوز؟ هل أنت مريض؟"
- "كلا أيها العبقري الصغير (هكذا كان يناديه في صغره) إنها الشيخوخة اللعينة. يبدو أن صديقك العجوز قد طعن في السن ولم يعد يقوى على العمل"
- "ولماذا لا تركن الى التقاعد؟"
- "تعني أن أقعي في غرفتي الحقيرة الى أن أتعفن كالكلب؟ أنت تعرف بأنني وحيد لا أسرة لي، لا زوجة ولا أبناء. مدخراتي كلها لا تكفي لإطعامي لشهرين"

وحين همّ الشاب بالرحيل، قال مسيو رامان وهو يودّعه:

- "تذكر دائماً يا ولدي: التقنية لا تُنقذنا من أنفسنا. نحن من ينقذها من أن تتحوّل إلى لعنة. إن بقي قلبك حيّاً، ستعرف كيف تستخدمها في خدمة الناس"

خرج الشاب إلى الشارع، هذه المرة ليس مثقلاً بالأسئلة كما في الماضي، بل محمّلاً بعزم جديد. أدرك أن رحلته مع التقنية ليست مجرد مهنة أو شغف، بل مسؤولية تجاه الإنسان ذاته. وفي داخله كان يسمع صدى كلمات الشيخ: "نحن من يصنعها، ونحن من يقرر إن كانت ستصنعنا من جديد"

٣

كان مايك في بداية ازدهار حياته المهنية عندما شـــرع بالتفكير في بناء قلعته الحصينة. شيء ما أخبره، حتى في تلك السنوات الأولى، بأنه سيحتاج الى مكان سري آمن يمنحه أكبر قدر من العزلة والخصوصية للقيام بتجاربه ولإيوائه في الحالات الطارئة. كان قد جمع ما يكفي من المال لشـــراء منزل منعزل في الريف كي يبنيها تحت فنائه المهجور أو حديقته المهملة. لكنه استبعد الفكرة (كانت تقليدية للغاية). ثم اهتدى بعد زمن الى الحل؛ إنه متجر المسيو رامان!

في تلك الليلة التي أعقبت حديثهما الأخير قلّب مايك الفكرة الغريبة في رأسه واتخذ قراره: سيشتري تلك البناية القديمة كلها. سيكتبها باسم صديقه العجوز على أن يكتب الأخير وصيته بأن تؤول اليه بعد وفاته. سيكتفي منه بوعد شرف ويترك له الاستفادة من ريعها بل سيطلب منه التواجد في مخزنه متى شـــاء كي لا يشـــعر بالملل أو بانتفاء الفائدة من بقائه. أما هو فلن يأخذ شيئاً لنفسه سوى هذا المتجر الصغير، بل ركنا واحدا يوصـــــله الى القبو الفســـيح الذي افترش طابقين كاملين تحت الأرض.

ولم يتأخر كثيراً في عرض الاقتراح عليه.

ترقرقت عينا العجوز بالدموع ولم يســأله عما ينوي فعله بالقبو وأقسم على الحفاظ على سرية الاتفاق وما تبعه من ترتيبات: ترك مايك الدكان الصـــغير كما هو، بيافطته القديمة وواجهته الزجاجية الرمادية وفوضـــى

أكوام الأجهزة التي كانت قبل سنوات قلائل قمة ما وصلت اليه التكنلوجيا لكنها غدت اليوم تاريخاً وقطع غيار لا فائدة منها تراكمت فوق الرفوف وفي الدواليب. ثم شرع على الفور بنصب سلمٍ حديدي بسيط وراء باب مموه بين الدكان والطابق العلوي من القبو الذي ملأه بأكوام من تلك الأجهزة وقطع الغيار حتى بدا مثل مقبرةٍ إلكترونية منسية. وفي مكان ما وسط تلك الفوضى بنى جدارا سريا يؤدي الى سلم ثانٍ ينتهي بعد سلسلة من الأبواب المحكمة الى فردوس عزلته تحت الأرضية المحصنة التي طالما حلم به.

في ذلك الركن السحيق، الذي لا يسمع فيه سوى صدى أنفاسه، ووميض الشاشات الهادئة، وضجيج المولدات الخافت، شعر مايك أنه امتلك أخيراً ما يصبو إليه: مساحة مطلقة من الحرية والعزلة.

لم يكن المكان مجرد مختبر، بل امتداداً لذاته الخفية، الجزء الذي لا يراه أحد. هناك، في قاع الأرض، ستبدأ فصول أخرى من حلمه المستحيل... الحلم الذي لن يعرف أحدٌ عنه شيئاً.

٤

شــــيء ما دفعه الى الإبقاء على ســــرية مكان هذا القبو حتى على زوجته وحلقة أصدقاء الطفولة المقربين.

لقد تركهم يظنون أنه تخلى عن لهاثه وراء حلم الســـفر عبر الزمن، وهو الانطباع الذي لم يمانع في توكيده.

ظل أعضاء هذه الحلقة الخماسية على اتصال وثيق ولقاءات مستمرة حتى بعد أن غادروا تلك المدرسة: هو لدراسة هندسة البرمجيات، ستيف لدراسة هندسة الحاسبات، كيتي لدراسة الميثولوجيا، ماري لإدارة الأعمال وتوم الذي وجد ضـــالته في الالتحاق بأكاديمية للمارينز (حيث يصـــنع التاريخ كما كان يحلم!)

خلال هذه الاعوام تغيرت أشــياء كثيرة إلا صـــداقتهم. صـــحيح أن الدروب تقطعت لكنها كثيراً ما كانت تتقاطع ليجتمع شملهم

غير أنهم، باســتثناء توم المســـافر أغلب الوقت في ما وراء البحار، ظلوا، حتى بعد تلك الأعوام يجتمعون في المقصف الصغير القريب من الجسر الخشبي العتيق ليحتفلوا بذكرى تخرجهم من تلك المدرسة. إنها الحلقة نفسها لكن الأدوار تغيرت: مايك بلومبرغ رجل الأعمال الملياردير صاحب شركات البرامج العالمية الذي لم يزل رغم نجاحاته يعيش صراعاً داخلياً بين الذوبان الكامل في عالم رجال المال والأعمال وبين ذلك الفتى الرومانســي المليء بالخيال، كيتي بلومبرغ زوجته وأم طفليه التي وجدت ضـــالتها في طفليها وفي الدروس التي تلقيها في الميثولوجيا، ســـتيف

ثورنفيلد المسـؤول المباشـر عن فروع صـناعات الحاسـبات والتجهيزات الرقمية في شـركاته، وماري غودوين مديرة مكتبه وأمينة سـره المتفانية، وتوم أرمسـترونغ العسـكري المعاق السـكير العائد من الحرب بعد تبخر حلمه في صنع المجد!

٥

كانت ماري تعرف الكثير عما يشغل مايك منذ سنين، بل كانت تدير المشـــروع كله دون أن تتدخل في تفاصـــيله التقنية، وجهها الصـــارم في العمل لا يخفي انضباطها الحديدي: نظرات مركّزة، ملامح متحفظة، قلما ترتدي ثياباً تكشف عن مفاتنها أو تضع مكياجاً صارخاً. تسريحتها عادية لم تغيرها من ســنين، وتخفي عينيها الســوداوين الواســعتين خلف نظارة سميكة تضفي عليها حضوراً قوياً يفرض الاحترام.

إنها ذراعه الأيمن، مســـاعدته الوفيّة التي تعمل كظلّ له، تنظم حياته وتقترح عليه ألوان ثيابه في المناسبات الرسمية وتحفظ مواعيده، تقف سداً أمام المتطفلين وتسدّ كل ثغرة في يومه المزدحم وتعرف أسراره الصغيرة إلا تلك التي يريد أن يحتفظ بها لنفسه.

إنها تصل إلى المكتب قبل أن ترتفع الشمس، خطواتها الرصينة على الأرض الباردة تملأ المكان بشـــيء من الطقوس. تضـــيء الحواســيب، تصــف الأوراق بدقة، تضــع الأقلام في المكان الصــحيح، وكأن ترتيب الأشياء الخارجي يمكن أن يمنحها ترتيباً داخلياً هي نفسها لا تجده.

قبل أن يصـــل الى العمل – متأخراً في كثير من الأحيان – كانت تجلس خلف مكتبها الكبير، وتمســـك القلم وتحركه على الورق وهي ســـاهمة. وســـرعان ما تقوم وتدخل غرفته. تقف عند الباب وتتأمل كل زاوية منها، تنظر في ولهٍ الى كرسيه المفضّل، الى المعطف المعلق على الحامل وكوب القهوة الذي يتركه نصـــف ممتلئ على الدوام. إنها تعرف

كل عاداته، كل حركاته الصـــــغيرة، كل خيط في حياته اليومية، لكنها تعرف أيضــاً أنها خارج عالمه الحقيقي، مجرد صـديقة وفيّة ورفيقة صـبا أو ربما أخت محبة وكاتمة أســـرار موثوقة. لكنها لا تملك إلا أن تحبه كمن تحرس كنزاً لا تملـك حق امتلاكـه. وعنـدمـا يتحـدث عن زوجتـه أمامها، تبتسم ابتسامة باهتة، بينما ينكمش قلبها كزهرة في البرد القارس.

كانت وهي تلج الغرفة تبتسم في حنان يخالطه لوم مثل لوم أمٍ لصغيرٍ اعتاد نثر ألعابه وكتبه وثيابه في أرجائها. تتقدم نحو مكتبه وتجلس على كرسـيه وتعيد من جديد ترتيب الفوضــى التي يتركها مسـاء كل يوم. ترفع كوب القهوة نصـف الممتلئ وتضـع شفاهها في موضـع شفاهه ثم تعيده الى مكانه بيدٍ مرتجفة. ترتب الأوراق وتقبّلها وتضـعها في مكانها. تمسـد على لوح المفاتيح وكأنها تمسد على يده، وتعتريها رعشة تخالطها لا تقبل النزول. كانت تدرك أنّ قلبه ليس لها، وأن حياته تمضــــي في دربٍ آخر مع امرأة أخرى تشـاركه البيت والأحلام والأطفال. لم يكن يدرك أنّها تُحبّه بهذا القدر، وربما لو أدرك لابتعد عنها رحمةً بها. لكنها فضّلت الصمت، مثل امرأةٍ وهبت صــغيرها لامرأة أخرى وارتضـــت أن تكون مربية له، أو ملاكاً حارسـاً، تضـع نفسـها بينه وبين قسوة العالم، وتكتفي بنصـيبها من الحلم.

وعنـدمـا تغلق عينيهـا بعـد يوم طويـل، يختفى المكتـب والواجـب والصـرامة. ويقف أمامها تحيطه هالة من ضـوء شـفيف، يبتسـم ابتسـامة ينخلع لها قلبها، قلبها الذي يدعوه لالتحام أبدي حميم.

وتمد يدها، وتدنو منه بلا خوف، بلا حواجز، وتحس بحرارة يده وهي

تلامس أصــابعها، وتبصــر حياتها وهي تذوب في تلك اللمســة. ويرتجف جســدها، وتحس بأن كل الحذر الذي التزمته طوال ســنوات قد اختفى في لحظة واحدة، لتحل محله رغبة جامحة لا تعرف حدوداً.

ويهمس باسمها، يلمس وجهها برفق، يدني شفتيه من شفتيها، وتختفي كل القيود، لا زوجة، لا مكتب، لا عمل، لا ســـــاعات، ولا قدر يحدّد ما يجب وما لا يجب.. وتتخلل رائحته الرجولية أعماق صدرها الذي انصهر تحت ضـــغط صـــدره القوي. إنه زمن من الحب الخالص الذي لا يعرف بداية أو نهاية، مليء بالنشوة والحرارة والالتحام والنبض العميق. وتنتفض في رعشة طويلة يخالطها بكاء من تصالح أخيراً مع العالم القاسي.

لكن فجأة، وكما يحدث دائماً، يهبّ النسيم، وتتراقص ستائر الشباك، ويتبدّد المشـهد، فتسـتيقظ وجسـدها ما زال يرتجف، وعيونها سـاخنة نديّة، لكنها سـرعان ما تمسـحها. تغسـل وجهها بالماء البارد. تنظر في المرآة، فتبصـــــر وجهها الصـــــارم الوقور الذي يعرفه كل من حولها. ثم ترتدي وقارها مثل درع سميك وتصل الى العمل بابتسامة مهنية لا تكشف شيئاً، لكنها تعلن لكل من حولها بأنها ماري غودوين، الآنســـــة العذراء التي لا تُخطئ، لا تتأخر، ولا تسمح لأي تفصيل أن يمرّ دون مراقبة.

كـانـت، في نهـايـة يوم العمـل الطويـل، تتلبـث قليلاً بعـد أن يغـادر الجميع. تحدق في الشاشة المطفأة، وتفكر:

- "لماذا اختار القدر أن يجعل حبي صامتًا؟ لماذا أضحي بكل شيء مقابل أن أكون قريبة منه لا غير؟"

لكنها تعرف الجواب مســـبقاً: إنه تلك الجملة التي طالما قرأتها أيام

صباها في قصص الفرسان والآنسات الخفِرات: "الحب الحقيقي قد يكون في الظل، لا في الضـــوء". وتبتســـم ابتســـامة صـــغيرة، ابتســـامة الملاك الحارس، وتذكّر نفسها مرة أخرى أن الحب الحقيقي قد يكون صامتاً، وأن الرغبة قد تبقى حلماً، كما يستحيل الحلم الى واقع... في الليل فقط.

٦

لم يكن بيتهما يضـــــاء بالأنوار وحدها، بل بنبض امرأة تعرف كيف تُوازن بين صـوت الأطفال وضـجيج التجارب، بين حرارة المطبخ وبرودة الأوراق المبعثرة على مكتب زوجها. كان البيت صغيراً بالمقاييس المادية، لكنه متسع بما يكفي ليضم عالمين متداخلين: عالم الحكايات والأساطير الذي تحمله في قلبها، وعالم المعادلات والدوائر الإلكترونية الذي يختبئ خلف باب الغرفة المغلقة حيث يقضي مايك معظم ساعاته.

كـانـت كيتي قلـب البيـت وروحـه، امرأة تحمـل في آنٍ واحـد وجهين متكاملين: زوجة محبة وأماً لطفلين لا يتوقفان عن الأســـئلة، وأســـتاذة جامعية تقف أمام طلابها بشـــموخ، تفتح لهم أبواب الأســـاطير القديمة وكأنها تفتح نوافذ على أسرار الزمن.

لم تكن حياتها مزدوجة بقدر ما كانت متشـــابكة؛ فهي حين تعود من قاعة الدرس تجد صـــدى حديثها عن إيزيس وأوزيريس يتردّد في صـــمت غرفة زوجها.

تخصّـــصـــها في الميثولوجيا صـــار جزءاً من كيانها، لغة تتنفس بها وتجد فيها ملاذاً من صرامة الواقع. كانت في محاضراتها تستحضر رحلة جلجامش، تبعث صـــور إله الزمن كرونوس وهو يلتهم أبناءه، وتســـتعيد دورات الزمان في الفكر الهندي حيث العوالم تولد وتفنى بلا نهاية.

كانت تؤكد لطلابها أن الإنسـان منذ بداياته لم يكتفِ بقبول الزمن كما هو، بل حاول أن يفهمه، أن يروضــــه، أن يمنحه معنى. وها هو القدر

يضـــعها إلى جوار رجل يســـعى للشـــيء نفســـه، ولكن بأدوات أخرى: الفيزياء، المعادلات، الآلات.

كانت تحب فكرة السفر عبر الزمن، لا بوصفها مشروعاً علمياً أو آلة يمكن أن تُصنع، بل كحلم إنساني قديم يشبه الحكايات التي ترافق البشر منذ آلاف السنين. لم يكن الزمن بالنسبة لها خطاً مستقيماً يمسك بلممنا ويجرجرنا في اتجاه واحد، بل دائرة تتكرر فيها الحكايات والأقدار. وربما لهذا السبب كانت تجد في عمل زوجها صدى خفياً لأساطيرها، حتى وإن لم تعترف بذلك علناً أمامه.

في البيت، لم تكن تسـأله كثيراً عن عمله. كان يختفي سـاعات طويلة في غرفته، يخرج منها بعينين مثقلتين بالسهر، يبتسم ابتسامة قصيرة ويرد على تساؤلاتها بصوت متعب:

- "إنها مجرد بحوث جانبية... بعض الابتكارات الصغيرة لا أكثر"

فتبتسم بدورها، تضع يدها على كتفه وترد بعبارة مقتضبة:

- "أثق بك"

لكنها في داخلها كانت تعلم. لم تكن تحتاج إلى براهين. فهي تعرف أن زوجها ليس من أولئك الذين يضـيعون وقتهم في "ابتكارات صـغيرة". كل شـيء فيه كان يصـرخ بأنه يطارد شـيئاً أكبر من نفســه. عيناه حين يحدّق في الفراغ، الأوراق التي يخبئها عنها وعن الآخرين خشـــية عدم التصـديق، التوتر الذي يسكن حركاته حين يقترب من لحظة كشـف. كانت تدرك، دون أن يُفصح، أنه يعمل على مشروع عظيم يتعلق بالزمن نفسه.

ولأنها تعرف، لم تضـــغط عليه بالأسـئلة. لم تكن تريد أن تحرجه أو

تجبره على الاعتراف بما يخشى هو نفسه الاعتراف به. فقد كان يشعر بالخجل من مجرد التلفظ بفكرة "السفر عبر الزمن"، خشية أن يُوصم بالسذاجة أو الجنون. العالم لا يرحم، والعلماء أنفسهم يسخرون من مثل هذه الأحلام. لذلك فضّل أن يلوذ بالصمت، أن يكتفي بكلمات عامة عن بحوث جديدة.

لكنها، حين تراه ينام على مكتبه بعد ليلة من الكتابة والرسم، كانت تقترب بهدوء، ترفع نظارته عن وجهه، وتضع غطاءً خفيفاً على كتفيه. ثم تلمس يده وتهمس في سرّها:

- "امضِ في حلمك... لن أكون أبداً ممن يخذلون الحالمين"

لم تكن شريكة في معادلاته، لكنها كانت شريكته في الحلم. كانت تؤمن أن ما يسميه الآخرون "سذاجة" قد يكون باباً إلى سر لم يُفتح بعد. وكأن قلبها يقول لها: هذا الرجل وُجد ليقاتل الزمن، فدعيه يمضي.

وكانت الأمومة تضيف إلى صورتها بعداً آخر. وحين يسألها طفلها الصغير أحياناً:

- "ماما، لماذا يبقى بابا في الغرفة طويلاً؟ هل يصنع لعبة لنا؟"

تبتسم وتحتضنه قائلة:

- "بابا يصنع شيئاً جميلاً... شيئاً سيجعلنا فخورين به"

لم تكن تكذب، لكنها لم تكن تعرف الجواب الكامل أيضاً.

أما ابنتها، التي ورثت عن أمها حب الحكايات، فكانت تجلس قربها في المساء لتسمع عن رحلة جلجامش للبحث عن الخلود. وحين تنتهي القصة، تسأل ببراءة:

- "وهل وجد جلجامش الخلود حقاً"

فتجيبها الأم:

- "ربما لم يجده كما أراد، لكنه وجد معنى لحياته"

ثم تفكر في داخلها: "لعل أباكِ أيضـــاً لن يجد ما يبحث عنه كما يتمنى، لكنه سيترك لنا معنى لا يُمحى"

في الجامعة، كانت لحظات كثيرة تُذكّرها بزوجها. وهي تشرح لطلابها فكرة "العصــر الذهبي" عند الإغريق، كانت ترى في عيونهم بريق الحنين إلى زمن مفقود. فتبتسم في سرها وتفكر:

- "ها هو حبيبي يحاول أن يعيد لنا عصراً ذهبياً بطريقته"

وحين تتحدث عن أســطورة فينيقية تصـــف الزمن كطائر يحلّق فوق بحر بلا ضفاف، كانت تسمع في صدى صوتها وقع خطواته في الغرفة المجاورة وهو يسعى لترويض الطائر.

بل إن بعض طلابها كانوا يلتفتون إليها بدهشـــة حين تتحدث بحرارة غير معتادة عن فكرة الدورات الزمنية، وكأنها تدافع عن حلم شـــخص آخر. لم يدروا أن محاضــراتها لم تكن مجرد ســرد أكاديمي، بل انعكاس لليل طويل تقضيه مع رجل يحاول أن يضع الزمن في قفص من أسلاك وشاشات.

بين حياتها الأكاديمية وحياتها الزوجية لم يكن هناك انفصـــال، بل جســـر خفي من الحكايات. كانت ترى في زوجها امتداداً للأبطال الأسطوريين الذين تروي عنهم، بطلٌ معاصر لا يواجه الآلهة، بل يواجه سر الزمن نفسه. لكن على خلاف الأساطير، لم يكن لديه سيف سحري

أو إكسير خفي؛ كان لديه ورق مبعثر، وشاشات لا تكف عن الوميض، ومعادلات وخرائط غامضة.

ومع ذلك، في لحظات الصمت العميق، كانت تخاف:

- "ماذا لو استيقظت ذات صباح فلم أجده في سريري واكتشف أن واحداً من "ابتكاراته الصغيرة" قد ابتلعته الى الأبد؟ ماذا لو مضى ولم يعد؟"

كان قلبها ينقبض من مجرد الفكرة. ومع ذلك، لم تسمح للخوف أن يظهر على وجهها. كانت تعرف أن أي تردد منها قد يهدم ثقته بنفسه. لذلك آثرت أن تكون الصخرة التي يستند إليها، حتى وإن كانت، في أعماقها، هشة مثل الزجاج.

في ليالٍ كثيرة، حين ينام الطفلان، كانت تجلس قرب النافذة، تتأمل السماء وتفكر:

- "الزمن هناك أيضاً يدور في حلقات. ربما نحن نعيش الآن، في زمن آخر، حياة أخرى. ربما هناك نسخ أخرى منا، أنا وهو والأطفال، في مكان لا نعرفه".

كانت هذه الأفكار تراودها مثل أحلام يقظة، لكنها لم تشاركها مع أحد. فهي تعرف أن لغته هي الأرقام، أما لغتها فهي الحكايات، وأن بينهما جسر هو الحب، وهو وحده كافٍ.

لقد كان زوجها يخجل من إعلان حلمه للآخرين، لكنه لم يستطع أن يخفيه عنها. لم يكن بحاجة إلى كلمات. فهي كانت تراه بعيون القلب، وتفهم بصمته أكثر من كلامه. كانت تعرف أنه يكتب فصلاً جديداً من

أسطورة الإنسان، وأنه، إن نجح أو فشل، سيظل في نظرها الرجل الذي لم يقبل أن يمر الزمن من أمامه دون أن يحاول الإمساك به.

أحياناً، في لحظة نعاسٍ متأخر، كانت تتخيّل نفسها وهي تروي، بعد أعوام طويلة، قصة مختلفة لطلابها أو ربما لأحفادها: قصة رجل تحدّى الزمن. لم تكن تعرف إن كانت سترويها كحكاية أسطورية أم كذكرى شخصية، لكنّها كانت متأكدة أن صوته وصمته سيبقيان في قلبها كما تبقى أصوات الآلهة في ملحمة قديمة.

وهكذا ظلت هي الحارسة: تحرس البيت، تحرس طفليها، وتحرس أيضاً حلم رجلها. لم تكن بحاجة إلى اعتراف صريح، لأن الاعتراف الأكبر كان يسكن بين نظراته وصمته، وكانت هي الوحيدة القادرة على قراءته.

وفي أعماق الليل، وهي تنام إلى جواره بعد يوم طويل، كانت تبتسم لنفسها وتفكر:

- "ليست كل الآلات من معدن. هناك آلات تُصنع من حب وصبر وإيمان. وأنا، ربما، آلة زمنه الخاصة التي تُعيده في كل مرة إلى قلبه وبيته كلما ضاع في الزمان"

٧

جلس توم في زاوية المقهى القديم، يتأمل الجدار المتشـــقق واللوحات الباهتة.

الهواء مشـبع برائحة القهوة المحروقة ودخان السـجائر، والزمن يسـير ببطء كأنه يتعمد أن يزيد من ثقل جلســته. بدت السـاق المعدنية تحت جسده أشبه بسلسلة ثقيلة تذكّره كل لحظة بأنه لم يعد الرجل الذي كانه.

دخل مايك، أنيقاً برغم ثيابه البسـيطة. برقت عيناه بدهشـة حين لمح توم. اقترب منه بخطوات مترددة، ثم انفرجت شـفتاه بابتسـامة مشـوبة بالحرج.

- "تومي؟ يا إلهي... لم أتوقع أن أراك ثانيةً. كم مضـى منذ آخر لقاء حضرته؟ ثلاثة أعوام، أربعة؟"

- "خمسـة" ورفع رأسـه ببطء "وربما أكثر. لم أعد أحفل بالسـنوات، يا مايك. الزمن بعد الحرب يفقد معناه، ويمكن للحظة واحدة أن تحرق ما قبلها وما بعدها"

جلس مايك، وبقي لحظة يرمق صـديقه بعينين تائهتين. غاب الاثنان في صمت قصير، قبل أن تستيقظ الذكريات.

- "هل تذكر سـنوات المدرسـة يا مايك؟ هل تذكر كيف كنا نركض في الملعب، وأنا أتقدمكم دائماً؟ كنتم تحاولون اللحاق بي وأنتم تضـربون الأرض بكل قوتكم وأنا أضحك وكأنني أحلّق في الهواء"

ابتسم مايك بخفة، لكن ابتسامته كانت تحمل مرارة ثقيلة، ولم يزد على

القول وهو يحاول تجنب النظر الى ساقه:

- "نعم يا توم، أذكر ذلك. كنتَ أسرعنا، والملعب كله يهتف باسمك".

- "لطالما أحسستُ بأن ساقيّ جناحين. في الحصة الرياضية، كنت أركض حتى أشعر أن الهواء نفسه يصفق لي. وأنت... كنتَ تلهث خلفي وتضحك، تقول إنني سأصبح يوماً عدّاءً أو بحاراً يسبق الريح"

وضحك مايك:

- "كنتَ ترسم المراكب في دفاترك، وترفض أن تذاكر دروسك مثلنا. ما زلت أذكر كيف وبّخك الأستاذ لأنك رسمت سفينة على ورقة الامتحان بدلاً من الحل"

ونظر توم الى الشاطئ الذي يصطفق في خياله:

- " كنتُ أبحث عن البحر حتى في الورق. كنت أريد شيئاً أكبر من مدينتنا الصغيرة: أشرعة بيضاء، نوارس تحلّق فوق الأمواج، ورجال يرتدون زياً موحداً يصدحون بالأغاني البحرية. أردتُ أن أهرب من ضيق الأزقة إلى اتساع الأفق"

وأطرق برهة، كأنما يختنق بذاكرته. كانت يده ترتعش لأنه لم يشرب شيئاً منذ الصباح كي لا يثير نفور أصدقائه:

- "وعندما كبرتُ، وجدت المارينز أمامي. صورة براقة: قوة، انضباط، زيّ صارم. قلت لنفسي: هذا هو البحر الذي كنت أبحث عنه"

وأمسك رأسه وهو يقاوم صداعه وأخرج من جيبه حبتين من مسكن الألم ورماهما في فمه دون ماء، ثم تابع:

- "لكن ما وجدتُه لم يكن البحر. وجدتُ رمالاً لا نهاية لها، حرّاً يلهب

الرؤوس، ورائحة بارود تخنق الأنفاس. الأفق الذي حلمت به كان دخاناً أسود. كنا نغني أول أيامنا في الحرب، نضحك كالأطفال لنخفي خوفنا. لكننا كبرنا في ليلة واحدة حين رأينا الدم لأول مرة"

ثم رفع رأسه الى صاحبه وقال بصوت مخنوق:

- "مايك، هل تتذكر سام؟"
- "سام"
- "سام العجوز، زميلنا في المدرسة"
- "آه، نعم. ذلك الذي تزعّم ثلة المشاغبين بعد أن تركتها. لم أسمع عنه منذ سنوات طوال"
- "كان معي هناك. كنا نحكي عن بيوت الطفولة، عن ملاعب المدرسة. وفي لحظة، تحول صوته الى حشرجة وقرقرة دم. أصابته شظية في عنقه فسقط بين يدي. كنتُ أصرخ باسمه، لكن رئتيه كانتا ممتلئتين بالغبار والدم. رأيت الحياة تفارق عينيه... وأقسم لك يا مايك، في تلك الليلة مات سام، ومات البحر الذي كان يسكن داخلي"

سكت، وأخذ نفساً ثقيلاً، ثم تابع بنبرة كسيرة:

- "بعد ذلك لم يعد شيء كما كان. لم أعد أبحث عن أفق. كنت أبحث فقط عن يوم آخر أبقى فيه حيّاً. لم أعد أسمع أصوات الموج، بل صرخات رفاقي. لم أعد أرى النوارس، بل أشلاء متطايرة"

أخذ مايك رشفة من قهوته ليخفي ارتباكه، بينما ظل توم ينظر إلى الطاولة كأنما يقرأ عليها كتاب حياته.

- "ثم عدت. نصف جسد، ونصف روح مثل جثة تأجل دفنها. الناس

يســتقبلونني بنظرات شــفقة، يربتون على كتفي، يقولون: "الحمد لله على الســـــلامة." لكن أي ســــلامة؟ لقد تركتُ جزءاً مني هناك، وتركتُ كل أحلامي"

وعدل سرواله الذي انحسر قليلاً ليكشف عن جزء من الساق المعدنية. طالما نظر اليها في وحدته كما ينظر إلى شـــيء التقطه من ســـاحة المعركة خطأً، شــيءٍ لا يخصــه تماماً، لكنه لا يستطيع أن يتخلى عنه. كان الضوء ينعكس على سطحها البارد فيشعر بوخزةٍ غامضة بين الفخر والعار. لم تكن تؤلمه، لكنها كانت تُذكّره بالألم. كل خطوة يخطوها في تلك الشــقة الصــغيرة الخانقة كانت تصــدر صــوتًا معدنياً أجوف، كأن الحرب ما زالت تمشي إلى جانبه، كأنها لم تنتهِ بعد.

أحياناً، في لحظات التعب، يمدّ يده ليلمسـها بحنوٍ غريب، كما لو أنها طفل لقيط وُضع بين يديه ليعتني به رغم كراهيته له. يقول في نفسه: "لقد أنقذتني هذه الســاق، لكنّها أيضــاً منحتني حياةً ناقصــة." ويبتســم بمرارة حين يتذكر أنها أكثر صـــبرًا منه، لا تشـــكو، لا تنزف، لا تتعب، لكنه يعرف في قرارة نفسه أنها ليست جزءًا منه، بل قطعة من الهزيمة صُنعت على شكل ساق.

- "لكنك حيّ، يا توم" أيقظه مايك من تأملاته بصـوتٍ مشـجّع خافت "ما زال بإمكانك أن تبدأ من جديد"

-"أبدأ؟ وكيف يبدأ من صــار نصــفه معدنـا. ونصــفه الآخر سـما ؟ الخمر والحبوب صــاروا رفاقي. كل ليلة أسـتيقظ وأنا أصـرخ. أرى سـام، أرى الانفجارات. أمدّ ساقيَّ لأركض كما كنا في المدرسة، فلا تتحرك"

وأسند رأسه على يده، ثم همس بصوت متحشرج:

- "ما يؤلمني يا مايك.. ما يؤلمني أكثر من الحرب نفسـها هو أنني لم أعد أملك القدرة على الحلم. ذلك الصبي الذي كان يرسم المراكب في دفاتره مات. لم يبقَ إلا هذا الحطام الذي يجلس أمامك"

أراد مايك أن يقول شيئاً ليغير الموضوع، لكنه ما أن شرع في الكلام حتى واصل توم حديثه:

- "أتدري يا مايك؟" قال وهو يحاول أن لا يزعج صديقه برائحة التبغ والخمر الرخيصة التي تفوح من فمه من أثر الليلة الماضية "لم يفت عليّ يوم دون أتذكر تلك اللكمة التي وجهتها الى بطني"

- "أما زلت تتذكرها. لا تدري كم تأسفت على ذلك"

- "لا تأسـف. لو عاد بي الزمن الى الوراء كما في تلك المركبات التي كنا نتحدث عنها في صبانا لكنت أنا من يطلب منك تسديدها"

- "لكنك ارعبتني حين صرخت قتلتني" قال مايك ضاحكاً.

- "ليتك فعلت ذلك يومها. لكنك أحييتني، بل قل أجلت قتلي. جعلت مني إنسـاناً آخر. حتى إذا ما امتلأت بالحياة والأمل والأحلام، جاءت الحرب وقتلَتني بحق"

وتوقف قليلاً ونظر الى الأرض وقال بعد تردد:

- "هل لك أن تصغي إليّ؟ سأقول لك شيئاً لم أستطع أن أقوله لأي أحد... لا، ليس خوفاً من الحكم، بل لأن الكلمة نفسـها ثقيلة... في المعركة الأخيرة، عندما سـقطت القذائف على الخندق، جبنتُ. شـل الخوف أوصـالي ولم أجد في نفسـي تلك الشـجاعة التي يمدحها الناس.

كنت... كنت أرتعش من الخوف، وأتمنى أن تبلعني الأرض"

- "أنت؟! الرجل الذي يعتبره الجميع بطلاً؟"

فأجاب دون أن يرفع رأسه:

- "بطلاً؟ لا يا صديقي. البطل الوحيد في ذلك الخندق كان سام... رفيقي. هو الذي وقف كالتمثال، لا يتراجع، يطلق النار حتى آخر رصاصة. مات هناك، وترك اسمه يتردد كرمز للشجاعة. أما أنا... فقد خانتني أعصابي"

ارتجف قلبه وهو يتذكر اللحظة: الصواريخ تنفجر في الهواء، غبار يملأ الأنفاس، صرخات زملائه تتقاطع مع صوت رصاص لا ينتهي. شعر بعزله، وكأن الخندق كله قد ضاق حوله، وكأن الحياة كلها اختصرت في ارتجافه. لقد كان سام على بعد خطوات قليلة منه، يشجع زملاءه، يرفع بندقيته بتصميم لم يعرف له حدوداً. وتذكر وهو يكاد يذوب من الخجل كيف ناداه:

- "توم.. استخدم قاذفتك يا توم. إنهم يتقدمون. حول إيقافهم"

لكنه لم يفعل شيئًا سوى الانكفاء خلف الطين وهو يبكي بشكلٍ هستيري، مختبئاً من وجه الموت، متمنياً أن يمر اليوم بلا فقدان أكبر.

- "وماذا في ذلك؟ الشجاعة أمام الموت لا تصنع الحقيقة. سام كان شجاعاً، نعم، لكن هل كان ما مات من أجله عادلاً؟"

- "أتريد أن تقول إن شجاعته لا تكفي؟ أنه مات بلا معنى؟ إنك تزيد أوجاعي"

- "أنا لا أقصد التقليل من موقفه" قال مايك بهدوء وحزم "لكن تذكّر

التاريخ: كم من طغاة ومجرمين واجهوا الموت بصــــلابة ولم تهتز لهم شـعرة؟ الشـجاعة صـفة شـخصـية، قد تكون ثمرة تربية أو مزاج أو حتى يأس، لكنها لا تبرر الفعل نفسه"

صمت توم طويلاً، ثم قال:

- "لكنني أشعر بالعار... كان هو الجندي الشجاع وأنا الرعديد"

- "لا تخجل من خوفك. الخوف شعور إنساني. قد تخذلك شجاعتك وأنت على حق، وقد يبتســـم غيرك وهو يواجه الموت وهو غارق في الباطل. القيمة ليســـت في كيفية مواجهة الموت، بل في المعنى الذي حملته حياتك قبل الموت"

ابتسم توم بخجل، لكنه لم يستطع أن يمحو صورة سام وهو يسقط على الأرض، بوجه لا يعرف الخوف، وعيون تصدح بالإصرار. تصور كيف صـرخ ليُشـجع زملاءه، وكيف غلب الخوف والبرد والظلام كل شيء إلا عزمه. ثم قال بشعور من العرفان:

- "إذن... ربما لم أخسر كل شيء؟"

- "أبداً. من ينجو ليشهد ويعترف أصدق من ميتٍ صامت، مهما بدا شجاعاً في لحظته الأخيرة. بطولتك ليست في أنك لم تخف، بل في أنك ما زلت قادراً أن ترى وتفكر وتسأل: هل كان ما نموت من أجله يستحق؟"

لبثا صامتين لدقائق، كل منهما غارق في صمت داخلي. وتذكر مايك كيف ارتعدت فرائصــه بعد تلك اللكمة التي وجهها لبطن صـديقه، وكيف لجأ الى العلِّية وهو يهذي من الخوف. بينما كان توم يتذكر رائحة البارود والدم، صوت الصفير القادم من الهواء، لزوجة الطين والدم تحت أقدامه.

كل هذه الصـور كانت تشـبه شـريطاً متكرّرًا في ذهنه، لا يختفي إلا حين يبدأ الحديث، حين يصرّ على أن يعترف بما شعر به"

ورفع رأسه قليلاً:

- "كنت أظن أن الشـــجاعة تعني ألا تخاف. الآن أعرف أنها تعني فقط أن تواجه نفسك بعد أن تخاف"

- "وهذا وحده شـجاعة... شـجاعة لم تُكتب على المقابر، ولم يُحتفى بها في التاريخ، لكنها أعمق بكثير من كل تصفيق أو مدح"

وفي تلك اللحظـة العابرة، أدركا معاً — دون أن يتبادلا كلمـة — أن البطولة ليسـت في الكيفية التي نموت بها، بل في الأثر الذي نتركه حين نصـــمت، حين نعبر إلى ما بعد اللحظة الأخيرة، تاركين خلفنا ما يدلّ على أننا كنّا يوماً... بشراً.

وشـعر توم ببعض السـلوى. أخرج سـيجارةً وأشـعلها بعد أن اسـتأذن بحياء، وقال هامساً متضرعاً:

- "ســام... أتمنى أن يعرف أنني أحببته، أن يفهم ضـــعفي عندما لم أستطع الوقوف معه في اللحظة الأخيرة"

- "هذا يكفي. أن تعترف، أن تشـــهد، أن تروي. هذا ما يجعل منك إنسانًا، حتى في مواجهة الموت"

- "إنساناً محطماً جسداً وروحاً"

- "لا تقل هذا يا عزيزي. ما زال في مقدورك أن تفعل الكثير"

- "أفعل الكثير؟ هه! إنك تقول هذا لتجاملني"

- "كلا، على الإطلاق"

وسكتا طويلاً ثم قال مايك بعد تردد:

- "اسمع يا تومي. أرجو أن لا تسيء فهمي. سأقول لك شيئاً قبل أن يصـــل الآخرون: أنت تعرف عظم المســـؤولية الملقاة على عاتقي في الشركة. لقد توسعت الأعمال بصورة لم أكن أتصورها. لكن عالمنا قاسٍ متوحش، ومع كل نجاح تحققه يزداد أعداؤك ومنافســـوك خبثاً، وتزداد ضرورة تأمين نفسك

انا اســـتطيع كما ازعم ان اؤمن الجانب الســـبراني من عملنا لكنني سـأخبرك بكل صـراحة: إنني أشـم رائحة خيانة ما. أشـعر منذ زمن بان هناك شيئاً ما مريباً يدور في الارجاء. ربما أكون مخطئاً – وهذا ما أرجوه على كل حال– لكنني أحتاج الى شـخصٍ أثق به تماماً ليتولى مسـؤولية أمن الشـــركة. ســأعينك في وظيفه بســيطة كما تبدو في الظاهر، لنقل موظفاً مسـؤولاً عن متابعة شـؤون العاملين. لكنك سـتكون مسـؤولاً أمامي عن كل ما يتعلق بالحفاظ على أمن الشـــركة وأســـرارها ومراقبة ما يدور خلف الأبواب المغلقة. اطمئن، لن يعرف بهذا ســـواي أنا وماري. ولن يثير اي شكوك"

نظر إليه تومي نظرةً متعبة، وفي صوته مرارة العمر كله:

- "أتريد مني أن أعمل مخبراً لديك؟"

ابتسم مايك بأسى وقال بلطفٍ يشبه الرجاء:

- "بل ملاكاً حارسـاً. سـتفعل هذا يا تومي. أليس كذلك؟ إكراماً لأيام الصبا.. أما بالنسبة لمرتبك...."

- "توقف يا مارك! لا تتحدث عن هذا!"

...

حين خرج مـايـك من المقهى، كـان الليـل قـد أثقـل المـدينـة بردائـه الرمادي، وأضـواء السيارات تتلوى كأفاعٍ من زجاج. مشـى بخطى بطيئة، يتردّد في أذنيه صوت توم وهو يقول:

- "كنت أظن أن الشـــجاعة تعني ألا تخاف... الآن أعرف أنها أن تواجه نفسك بعد أن تخاف."

تردّد الصـدى في أعماقه كأنما ألقى صـديقه بجملةٍ من معدنٍ ثقيل في قلبه. لم يكن الحديث عن الحرب فقط، بل عن الزمن نفســـه — ذلك الكائن الغامض الذي يبتلع الناس ويعيدهم إلى صـــورٍ أخرى. أحسّ أنه هو أيضاً يعيش حربه الخاصة، حرباً بلا بنادق، بلا صرخات، لكنّها أشد فتكاً لأنها تدور في الداخل.

قاد ســيارته عائداً إلى المختبر الســري تحت متجر رامان. نزل الدرج الحديدي ببطءٍ، وكل خطوة كانت كأنها تهبط به من عالم البشـــر إلى باطن الذاكرة. أدار المفاتيح، اشــتعلت الأنوار الباردة، وبدأت الشــاشــات ترمش في الظلام .على الطاولة الوســطى، كانت الرســومات والخرائط تنتظر عودته كجنودٍ على أهبة الانطلاق. جلس، وراح يكتب ملاحظات سريعة عن "الزمن الذاتي" عن "تسارع الوعي في لحظة الخوف"، ثم رفع رأسه كمن لمح الفكرة التي كان يبحث عنها منذ سنين.

تذكّر وجه توم والعرق الذي تجمع على جبينه وهو يعترف بخوفه.

"الخوف... الخوف هو اللحظـة التي يتمـدّد فيهـا الزمن إلى مـا لا نهاية. دقيقة واحدة فيه تساوي عمراً كاملاً"

كتب الجملة في دفتره بخطٍ كبير، وأحسّ أن تلك اللحظة ستقوده إلى مرحلة جديدة من تجاربه.

- "إذا استطعتُ أن أبطئ الخوف، أن أجمّده، أن أستعيد لحظة الرعب نفسها من خلال الجهاز، فقد أكون قد أمسكت بنقطة البداية"

أغلق الدفتر، ارتدى معطفه استعداداً للعودة الى البيت.

وفي الأعلى، كانت المدينة تغطّ في نومٍ بارد.

٨

من المؤســـف أن النموذج الذي جســـدته ماري ليس هو القاعدة في عالمنا، بل هو الاستثناء، الاستثناء النادر في الحقيقة.

ثمة حشرة خفية تنخر في قلوب البعض وتقض مضاجعهم ليل نهار، حشـــرة تترك وراءها أينما حلت خراباً وحقداً وحســـداً لا على أعدائهم أو منافســـيهم (وهذا قد يكون أمراً معتاداً وغير خارج عن الطبيعة البشـــرية) لكن على أقرب النـــاس إليهم، على من يفتح لهم أبوابـــه ويمنحهم الود والعون والثقة!

حشـــرة كهذه ظلت تنخر في قلب ســـتيف وظل يكافحها منذ أول يوم ظهرت فيه على مايك ملامح التفوق والنجاح، لكنها كانت تزداد ضـــراوة وإلحاحاً كلما تقدم في حياته المهنية والعلمية.

كثيراً ما يجلس وحيداً في مكتبه المعتم، والضوء الخافت من المصباح المكتبي يســـلط وهجاً على أوراقهالمبعثرة، لكنـــه لم يكن يقرأ، ولم يكن يكتب. كل ما في رأســـه دوّامة لا تهدأ، سلسلة من صـــور صـــديقه مايك، الناجح، المتألق، الذي بدت حياته وكأنها مسار مستقيم من الانتصارات، بينما حياته هي حافة صخرية متصدعة تحت أقدامه.

كل مرة يتذكر ابتســـامة مايك، شـــعبيته، وكلماته المرحة التي تتخلل المجالس، يتضـــخم شـــعوره بالغيرة ويملأ صـــدره بضـــيقٍ يجعل قلبه يخفق بعنف. الغضب والحسد امتزجا في خليط سامٍ من الألم النفسي.

- "لماذا هو، لا أنا؟"

كانت هذه الكلمات تتكرر في عقله كصـــوت مبحوح، يطارده ليل نهار. لقد عمل بجد، لا يقل عن صـديقه، وربما أكثر، لكن الحظ – ذلك العدو الصـــامت – بدا وكأنه يفضّـــل مايك وحده ويمنحه الفرصـــة بعد الأخرى، بينما هو متروك مع ركام طموحه المحطَّم.

جلس يحدق في صور مايك على شاشة حاسوبه، صور الاجتماعات، ابتســامات الموظفين، الجوائز، الإشــادات. كان يســمع مع كل صــورة طقطقة خفية في داخله، كأن شيئًا يتكسـر ببطء في صـدره. ان قلبه يئن كل مرة ويتملكه شـعور بالغبطة ممزوج بالاحتقار، شـعور بالغيرة ممزوج بشيء أشد قتامة: الرغبة في الانتقام.

بدأ يتخيل المشـــهد: ما الذي ســيحدث لو انهارت صــورة مايك أمام الجميع؟ لو انكشف ضعفه أو فضيحة صغيرة أطاحت به؟

كم ســيكون مدهشًــا أن يرى ذلك الوجه الواثق يتهشّــم، أن يرى العالم ينقلب عليه... وأن يأخذ هو مكانه، فيســتعيد اعتباره المهدور. أخذ يراقب حركات صــديقه، تحركاته اليومية، المكالمات الهاتفية، الاجتماعات. كل بريد إلكتروني، كل موعد، أصــبح مادة للترقب، ووســيلة لصــناعة خطة دقيقة. لم يعد يلتقي مايك كصديق، بل كهدف، كحلم مظلم من أحلامه.

كان الصــراع في داخله أعنف من أي معركة في الخارج: إنه يشــعر بالذنب أحياناً، شـعوراً يقطع قلبه كما يقطع السـكين اللحم. لقد نشـآ معاً، تعاونا، ضـحكا، شاركا الأسرار، لكن الحسد غرس فيه جذوراً عميقة. كل مرة يحاول أن يخفف من ناره، يتذكر ابتســـامة مايك أثناء حفل النجاح الأخير، وكيف وصفه أمام الجميع بأنه "شريك مخلص وموهوب"، فتزداد

حرارة الغيرة.

- "إنه لا يستحق... لقد نال كل شيء بفضل الحظ وحده"

وهكذا، يبرر لنفسه خططه، يختلق الأعذار لكل فكرة مظلمة تخطر في ذهنه. لم تعد الغيرة مجرد شعور، بل أصبحت قوة محركة، تحركه لتجاوز كل الحدود.

وفي الليل، حين يوصد أبواب العالم على نفسه، يظل جالساً في الظلام، يسترجع كل المرات التي نجح فيها مايك، وكل الإخفاقات التي عاناها هو. يذكر مشاعر الإحباط، الأمل الذي خذله، اللحظات التي شعر فيها بالخذلان من أصدقائه الآخرين، وكيف أن نجاح مايك كان ينتصب أمامه دائماً كمرآة تظهر فيها كل نقاط ضعفه.

لكنه يسمع صدى ضحكاته مع مايك في المدرسة، يتذكر كل المرات التي وثق فيها صديقه به، كل المرات التي أخطأ فيها هو نفسه ولم يلاحظ أحد. وكل تلك الذكريات الآن تقف أمامه كأشباح، تذكره بأنه كان صديقاً، وأنه الآن غارق في رغبة مدمرة.

إنه ليسمع في عقله صوت والدته التي حذرته من الغيرة والحقد، وصوت أبيه الذي كرر دائماً: "القوة الحقيقية لا تأتي من سحق الآخرين، بل من بناء نفسك". لكن هذه الأصوات تتلاشى أمام الهجوم الداخلي لعقله، أمام الرغبة الجامحة في الانتقام. وتعود الحشرة المعدنية المقيتة لتنهش قلبه وتقول له إن الحقيقة الوحيدة التي لا مفر منها هي أنه لن يكون سعيداً حتى لو تخلص من مايك. لأنه، حتى عند الانتصار، سيبقى صدى الغيرة، الصراع الداخلي، الذنب، والندم يلاحقه بلا توقف.

وكل خطوة إلى الأمام على هذا الطريق المظلم هي خطوة إلى انحدار أعمق في نفسه، حيث لا يعود هناك مكان للعودة.

تزداد الدوّامة صخبًا، كأن رأسه يضجّ بخلايا تتآكل.

يعرف أنه يسقط، لكنه لا يريد التوقف.

كلما تذكر ماري وهي تتنقل بثقةٍ في مكتب مايك، ازداد شـــعوره بالمهانة.

كان يراها – في خياله المريض – حارسًـــا أنثويًا لعرشٍ لا يحق له الاقتراب منه.

- "نعم. مايك هو الشـــوكة العالقة بحلقومي. لا طريق أمامي لبلوغ القمة ســـوى إزاحته عن طريقي بأي ثمن، هو وتلك الحية الرقطاء التي تحرسه.. ولتذهب الصداقة الى الجحيم!"

الفصل الخامس

حفلة الصيد

١

دخل فيليب في عجالة وعلى وجهه علامات الإثارة والتلهف:

- "سيدي. هناك شخص يريد مقابلتك في أمر خطير"
- "ومن يكون" سأل جونسون.

لم يجبه فيليب بل فتح الباب وخاطب الرجل غير المرئي الجالس في غرفة الانتظار:

- "تفضل يا سيد"

والتفت نحو جونسون:

- "سيدي. أقدم لك..."
- ثورنفيلد.. اسمي ستيف ثورنفيلد. ولدي معلومات مهمة للغاية"

٢

خفق قلب مايك بشده وهو يقوم بالاختبار الأولي للجهاز. ظهرت على الشاشة عبارة ترحيبية:

- "مرحبا بكم في برنامج متصـــفح الكرونونيت–النســـخة التجريبية. يرجى ادخال اسم المستخدم وكلمه المرور"

فعل ذلك فانفتحت نافذة أخرى:

- "اكتب الاحداثيات الجغرافية للحدث المراد مشـــاهدته أو اســـتعن بالخريطة للوصول إليه"

فعل ذلك أيضـــاً فظهرت صـــوره حية لمكتبه. كان المكتب خالياً. لم يجد فيه شيئا غريبا سوى الكثير من الفوضى التي تدل على أن ماري لم تقم بترتيبه لفترة ما. ثم ضـــغط على المربع الأخضـــر الذي يحمل عبارة" للانتقال الى الزمن المرغوب اضـــــغط هنا" اختـار زمنـاً ليس بـالبعيد فومضت الشاشة بصور متداخلة متحركة غير واضحة المعالم ثم عبارة

- "عذراً. يتعذر الوصـــول الى التاريخ المحدد. يرجى إعادة المحاولة ثانية"

وبدلاً من أن تصيبه تلك العبارة بالإحباطـ لم يتمالك نفسه من الوثوب وترديد صـــيحة أرخميدس الجذلى: "وجدتها!" ثم جلس مجدداً وأخذ يتأمل حلمه وهو يكتسي لحماً ودماً. وابتسم وهو يرى الفارق بين الة الزمن التي طالما شـــاهدها الناس وقرأوا عنها، تلك المزدحمة بالســـاعات والعدّادات والنوابض والقبضـــات الياقوتية والمصـــابيح الملونة والكرســـي ذي الظهر

العالي وبين هذا الجهاز البسيط: مجرد شاشة ولوحة مفاتيح وحاسوب لا يزيد سمكه عن الاصبع الواحد.

- "هنيئاً لك. ها نحن أخيراً على بعد خطوات قليلة من حلمك يا ويلز !"

وشعر فجأة بتعب شديد، تعب المسافر الذي يصل الى محطة قريبة من غايته لكنه لا يقوى على المضي أكثر من ذلك فيسمح لنفسه بإغفاءة قصيرة تحت شجرة ظليلة على جانب الطريق. تثاءب ومسح على وجهه فتفاجأ بهذه اللحية النامية. إنه لا يعرف بالتحديد كم مضت عليه من أيام وساعات في هذا الحصن المنعزل عن العالم.

نهض عن مقعده وارتمى على الأريكة التي ورثها عن جده. كان متعباً عقلا وجسداً من العمل المستمر دون عون من أحد، ومن ماري بالأخص. وفكر في كمّ الصعوبات النظرية والعملية التي اجتازها وكيف غدا الآن على مرمى عصاً من الحلم الذي راوده منذ صباه.

٣

ابتسم الضيف الجالس أمامه وقال متأملاً:

- "إذن يا سـيد مايك، أنت لا تتحدث عن سـفر عبر الزمن بمفهوم الانتقال التقليدي، بل استرجاع بصري–سمعي لحدث سابق عبر التقاط وتجميع كل التغيرات الموجية والكمية التي خلّفها ذلك الحدث في الوسط المحيط، أي الحقول الكهرومغناطيسية، الصوت، التبدلات الكمومية للبيئة، وربما حتى موجات الجاذبية، ثم إعادة بناء الحالة الأصلية للمجال عند الإحداثيات الزمانية والمكانية المطلوبة لعرض صورة الحدث وصوته كما وقع.

بعبارة أخرى: إنك تقترح البحث عن طريقة لالتقاط وجمع الانبعاثات التي يولدها الحدث وتُعيدها بعكس الزمن كي تستعيد لحظة الماضي كما كانت، دون تدخل أو تغيير؟

- "بالضبط يا سيدي"

- "فكرة ساحرة، لكنها بعيدة عن البساطة. كل حدث في الكون يترك أثره، نعم، لكن هذه الآثار لا تبقى نقية. معظم الموجات التي يخلقها الحدث تُمتص أو تتلاشى في البيئة. تتحول إلى حرارة دقيقة، حركات ذرات وجزيئات لا تُرى، وتُفقد تفاصيلها"

- "لكن ماذا لو استطعنا جمع كل هذه الآثار؟ ألن نتمكن من إعادة بناء الصورة؟"

- "يمكن ذلك نظرياً ، لكن الأمر مختلف من الناحية العملية،

فالموجات تضـعف مع المسـافة، وتختلط مع أحداث لاحقة. أضـف إلى ذلك الحواجز المادية: الجدران، الغيوم، أي طبقة تمتص الإشـارة، وكل شـيء خلفها يصـبح مخفياً. حتى لو التقطنا كل موجة، فلن نتمكن من إعادة خلق الحدث بالكامل"

- "أرى أنكما اندمجتما في النقاش بغيابي"

قاطعهما الجد وقد عاد حاملاً طبقاً من العنب ثم قال:

- "تذوق هذا العنب يا سيد أحمد. طازج ومن حديقة المنزل"

- "في وقتك تماماً يا جدي" نهض مايك وتلقى الطبق وافسـح بعض المكان على المنضدة الصغيرة ليضعه عليه "كنت أقول للسيد إن نظرية الموجات الكلاسيكية تعطينا بعض الأمل في تحقيق فكرة تكوين صـورة مرئية-سمعية لأحداث الماضي"

- "تقصد وجود خواص تسمح بعكس الزمن بدون خسائر حيث يمكن إعادة استرجاع صور الأحداث عند أي زمن سابق؟"

- "بالضبط يا جدي. لكنها مجرد فرضية من بين فرضيات كثيرة"

ابتسم الضيف بتواضعٍ وأدبٍ جمٍّ وقال:

- "لو كان الأمر بهذه السهولة، لكنا قادرين على مشاهدة التاريخ كما نشاهد فيلماً سينمائياً. لكن هناك عقبات كلاسيكية وسياقية كبرى تحول دون ذلـك في العـالم الواقعي. خـذ مثلاً أن الآثـار الموجيـة تتعرض لمشـكلات هائلة مثل التلاشـي والامتصـاص حيث أن معظم الموجات تُمتص وتتحول إلى حرارة دقيقة داخل المواد، فتضيع تفاصيلها. ثم هناك التشـويش، فكل حدث جديد يضـيف ضـوضـاء جديدة، فتختلط الآثار

القديمة بالجديدة. ولا تنس ضَعف الإشارة، إذ كلما ابتعدت الموجة عن مصدرها، تضعف حتى يصبح قياسها شبه مستحيل"

- "هذا صحيح" أجابه مايك" لكن يمكننا التقاط دلائل عنه، شذرات يمكننا من خلالها رسم صورة تقريبية لما حدث"

تدخل الجد وهو يضع حبة عنب بين أسنانه الناصعة البياض:

- "إذن، ما يمكننا فعله هو مشاهدة لمحات من الماضي، لا لتغييره، بل لفهمه؟"

- "تماماً" قال مايك بحماس "لنأخذ أمثلة من الطبيعة: انفجار نجم بعيد يضيء محيطه، الضوء ينعكس على الغبار الكوني، ونستطيع بعد مئات السنين رؤية ما جرى، وكأنه تسجيل مؤجل"

أومأ الجد موافقاً وقال:

- "إذن الفكرة ليست خيالاً محضاً، بل فرصة للتحقق"

- "صحيح، لكنها محدودة" أجاب الضيف "إذ لا يمكننا استعادة كل شيء. لكن يمكننا تصور أجهزة مستقبلية فائقة الحساسية، ربما امتلكنا يوماً "شاشات ماضٍ" تعرض لنا مقاطع من لحظات مضت، دون أي تدخل أو تغيير في مجراها، لكنها تجمع الموجات الصوتية أو الكهرومغناطيسية الدقيقة، وتحللها باستخدام خوارزميات ذكاء اصطناعي لتعيد بناء صورة تقريبية للحدث"

- " نعم. أجهزة مستقبلية فائقة الحساسية" ردد مايك مع نفسه.

وعلق الجد قائلاً:

- "وهذا يختلف طبعاً عن السفر عبر الزمن التقليدي"

- "بالضبط. في السفر عبر الزمن، نغير موقعنا في النسيج الزمني، فتظهر مفارقات منطقية مستحيلة. أما هنا، فنحن نظل في الحاضر، نقرأ فقط آثار الماضي. لا مفارقات، لا تدخّل ولا تغيير، فقط المشاهدة والاستنتاج"

صمت الثلاثة وكأنهم ينظرون في الأفق الى تلك اللحظة العظيمة، ثم قال مايك متأملاً:

- "ويبقى السؤال الأعمق: هل الماضي مجرد ذكرى في عقولنا وسطور في كتبنا، أم أنه موجود فعلياً في الكون على هيئة إشارات محفوظة تنتظر من يقرؤها؟"

قال الضيف في تأمل عميق:

- "إذا كان كل فوتون خرج من الأرض قبل ملايين السنين ما يزال يحمل صورة ما كان هنا، فالماضي محفوظ بالفعل، لكنه بعيد عنا. أما إذا كانت الموجات تتلاشى إلى الأبد، فقد يكون الماضي مجرد "أثر ناقص" لا يمكن استعادته بالكامل"

نهض مايك وأحضر كؤوس النبيذ وجلس ثانية وهو يقول مبتسماً:

- "ربما لا نتمكن من العودة إلى طفولتنا أو تصحيح قراراتنا، لكننا سنتمكن يومًا من فهم الماضي، وقراءة ما تبقى منه، وهذا بحد ذاته حلم مذهل. تفضل كأسك يا سيدي"

- "شكراً" أجاب الضيف بلطف "لكنني لا أشرب" ثم قال بنفس القدر من التأمل الحالم "وبهذا، ننتقل من حلم تغيير الماضي إلى طموح فهمه ورؤيته، وهو طموح أكثر انسجاماً مع القوانين العلمية وأكثر إثارة لعقولنا

وأسئلتنا الفلسفية"

كان الجد الذي بدا قوياً وفتياً رغم تجاوزه السبعين، بقميصه الأبيض الذي يظهر أعلى صدره الأسمر المفتول، ولحيته المشذبة الفضية وحاجبيه الكثين وتسريحة شعره الطويل الذي يجمعه في خصلة صغيرة تتدلى من رقبته مكتفياً خلال الشطر الأكبر من هذا النقاش بالإنصات وهو ينظر بفخر الى حفيده وهو يناظر هذا العالم الذي ذاعت شهرته في الأوساط العلمية وتردد اسمه عدة مرات كمرشح لجائزة نوبل.

- "آه. لقد سرقنا الزمن" قال الضيف ضاحكاً "وآمل أن نستعيد يوماً ما سرقه منّا. لقد أوشكت على التأخر عن موعد مهم للجمعية الفيزيائية. سررت كثيراً بالحديث معك يا سيد مايك"
- "وأنا أيضاً يا سيد... "
- "أوه يتدخل الجد، يا لي من عجوز أخرق! لقد نسيت أن أعرفك بالسيد أحمد فؤاد القادم من ...."

وانتفض مايك من ذكرياته وأخذ يبحث عن المقال الذي ألجأه الى هذا المكان، وقرأ اسم كاتبه فشحب وجهه: نعم إنه هو؛ الكاتب الذي ذبحوه في الشرق البعيد!

ها هو يشعر بأن الحلقة تضيق أكثر فأكثر من حوله. ترى هل يكون هو التالي؟

وقام الى كومبيوتره وغامر للمرة الأولى منذ مجيئه الى هنا بتصفح الانترنت لمعرفة أخبار العالم فهاله حجم الضجة والتخويف والتحشيد الإعلامي وقعقعة السلاح المشرع ضد اختراعه المرتقب، فشهق وهمس

في ذهول:

- "يا إلهي! إنها أشــــبه بحرب عـالميـة. أنـا، وحدي، في مواجهـة العالم!"

- "كلا يا ولد" قال الجد بصــوته الهادر الذي لم يســتطع كعادته أن يحيله الى همس "لست وحدك أبداً"

٤

في الغرفة الصغيرة التي لا ينيرها سوى مصباح أصفر باهت يتدلى من السقف، كانت جالسة على الأرض، بل ملقاة عليها تقريباً. مكبلة اليدين والرجلين. جائعة، عطشى، ممزقة الثياب. وجهها الجميل فقد الكثير من نضارته، لكن ملامحه لم تزل جميلة، كأنّ في أعماقها بقايا من كرامةٍ تأبى أن تُسحق. على جبينها عروقٌ زرقاء دقيقة، وعلى وجنتيها ظلّ رمادي يشي بأيامٍ طوالٍ من السهر والخوف. شعرها المتشابك ينسدل على كتفيها كستارٍ حزين، وتحت عينيها اللتين بدتا أكثر سواداً واتساعاً من دون تلك النظارات ظلالٌ داكنة، تشبه خُطوط الخسارات التي لا تُمحى.

ثمة بقع من الدم تيبست على حاجبيها وزوايا فمها. آثار الكدمات التي مضى عليها أكثر من أسبوع امتزجت بالآثار التي لم يمض عليها سوى ساعات.

ومع ذلك، ظلّ في نظرتها شيءٌ من العناد، من ذلك الضوء الذي لا يُطفأ. كانت تدرك، من طريقة تعذيبها الوحشية، بأنهم لا يريدون الابقاء عليها بعد الحصول على ما يريدون من معلومات، لذلك واصلت تحديها وصمتها المطبق خلا صرخات الألم التي تفلت منها أحياناً. لم تعرف من أين واتتها كل هذه القدرة على التحمل. لقد أوشكت على الانهيار في الساعات الأولى، لكنها اكتشفت، لدهشتها، أن في داخلها قوة لا يمكنهم دحرها. لم يعد الألم يعني لها شيئاً. صارت جلسات "التحقيق" تلك أشبه

بروتين يومي، بســاعات عمل مرهقة اعتادت عليها. ما كان يخيفها أكثر من العذاب الجسدي هو فكرة انهيارها من وطأة التعذيب النفسي.

كانوا في غاية اللطف في البداية:

– "آنســة غودوين. نعرف مدى انضــباطك وحرصــك على أســرار عملك. ونحن نقدر هذا عالياً، لكنك لا تعرفين بأنك، بامتناعك عن التعاون معنا، تعرضــين مصــلحة بلادك، بل مصــلحة العالم بأسـره، الى عواقب كارثية"

– "كيف لي أن أتعاون معكم وأنا لا أملك أي معلومات لم يســبق لكم معرفتها؟"

– "لا تناوري. نعرف أنك تعرفين الكثير، وتخفين أكثر."

– "أنتم مخطئون."

– "حسناً. لسنا في عجالة من أمرنا. سنمنحك بعض الوقت للتفكير. وحتى ذلك الوقت ستبقين معنا معززة مكرمة"

وتغيرت طريقة كلامهم معها يوماً بعد يوم. صـــــاروا أكثر حدة وعدوانية، لجأوا الى التهديد، ثم تجاوزوه الى الإهانات، ثم الصــــفعات، وأخيراً الضرب المبرح والإغراق الوهمي وكل ما في جعبتهم من أساليب.

لكنهم لم يحصــلوا على شــيء. كان صــمودها يثير غيضــهم ويدفعهم الى المزيد من العنف. صاروا يتلذذون بتعذيبها ويتنافسون في التفنن فيه.

وكان جوابها الوحيد، حين تغادر صمتها المطبق:

- "لا أعرف شيئاً"

في الليلة الأخيرة، قال أحدهم وهو يبتسم ابتسامة باردة:

- "سنمنحك مهلةً أخيرة حتى صباح الغد، ثم..."

تساءلت مع نفسها:

- "وكيف ستعرف أن الصباح قد حل؟"

وانتبذت هذا الركن من الزنزانة الباردة نصف المعتمة. وراحت تتحدث وهي تنظر الى نقطة محددة في الفراغ كما لو كانت تنظر في عدسةٍ خفيّة تعبر الزمن والمكان، واثقة بأنه سيراها في يوم ما، في يوم قريب كما تتمنى:

- لم تبق لي سوى هذه الساعات، وربما الدقائق يا مايك. أدرك أن نهايتي قد دنت، ولهذا سأقول ما كتمتُه طويلاً: مايك. أنا أحبك. لقد أحببتك على الدوام. أحببتك مذ كنا نتنافس أنا وكيتي على الفوز بقلبك. لقد خسرت المنافسة. أدركت هذا منذ وقت بعيد وسلمت به رغم أن الغيرة كانت تأكل قلبي، لكنني لم أتوقف عن حبك. جعلت سعادتي أن أقف الى جنبك وأخدمك في كل ساعات صحوي وأن أحلم بك ساعات نومي. وها أنا أهبك حياتي.

اعرف أنك ستراني وتسمعني بفضل عبقريتك. أنا أؤمن بك وبصواب ما تفعله.

احذر من ستيف. إنه خائن.

ثق بي كما أثق بك. لن يحصلوا مني على شيء"

وأصدر الباب الحديدي الثقيل صريراً اخترق عظامها وارتعدت معه أوصالها، وأحست بقطرات تبلل سروالها الداخلي:

- "هل تكلمين نفسك أيتها القطة المتوحشة؟ هيا. لقد انتهى الوقت.

هل عندك ما تقولين؟"

قال فيليب.

وتمالكت شجاعتها اذ تذكرت أن حياة مايك قد تتوقف عليها:

- "نعم"
- "حسنا؟"
- "اذهب الى الجحيم"

ابتسم بخبث، وأخذ يتأمل وجهها المتورّم:

- "أنا آسف حقاً. لقد كنت كريما وصبوراً معك. هل أخبرك أحد بأنك مثيرة للغاية، وخصـــوصـــاً حين تفردين شـــعرك وتقلعين هذه النظارات السميكة؟ ربما لو التقينا في مناسبة أخرى لكنّا.. ولكن هذه هي الحياة"

وتراجعت الى الزاوية وهي تجمع أطرافها المرتجفة.

ودوت طلقة واحدة.

٥

لو رأى زائر هذا المكان لتصـــوره مشـــغلا فنيا لا مختبر ابحاث يقف على ابعد تخوم العلم والتكنلوجيا في عصـــــره. لم يكن مختبراً ناصـــــع الأضــواء بجدران بيضـــاء نظيفة ورفوف ومناضـــد تتوزع عليها مختلف الآلات المعقدة، بل قبواً واطئاً يفتقر الى الترتيب وتمتلئ جدرانه بالصــور الفوتوغرافية واللوحات وسجادات الجدران التي جمعها هو وزوجته من كل أرجاء العالم: لوحات تمثل رحلات الســندباد ومآثر هرقل الســبعة صــورة لتشــارلي تشــابلن الجالس على دكة البيت وبجانبه مســاعده الصـــغير، منمنمات تصـــور رســـتم الباكي على ولده الذي قتله بيديه ومجنون ليلى الهائم في الصحراء، صورة لجده بشعره المشدود على شكل ذيل حصان وهو يقف مع جدته في مايوهٍ محتشم على البحر، صورة قديمة غائمة له في حضن أمه وأبيه اللذين يتذكرهما بالكاد.

كانت الموسـيقى تصــدح كثيراً بأغنيات ومقطوعات لا يجمعها جامع: معزوفات سيتار هندي وكونشيرتات جلو وبيانو من كل العصور، أغنيات حزينة من بلاد بعيدة لا يفهم كلماتها لكنها تبدو مثل بكاءٍ مريرٍ لرجال فقدوا كل أمل لهم في الحياة.

لكنه كان ســجناً، ســجناً بعد كل شــيء. وكما في الزنازين الانفرادية، حيث الصـــــمت كثيف كالغبار، تبدأ العقول بالتحلل البطيء وتنشـــأ الهلاوس والكوابيس ككائنات صـــغيرة تزحف من أعماق الفراغ، ويســـمع السجين همسات لا يعرف مصدرها، أو يلمح وجوهًا تتكوّن وتختفي على

الجدران الرطبة، وتتكاثر الأصـوات في رأسـه حتى يغدو غير قادر على التمييز بين ما هو واقعي وما هو متخيل. وحين تمتد العزلة أسـابيع أو شـهورًا، تبدأ الأفكار بالانحدار نحو هوةٍ أكثر ظلمة: فكرة الخلاص بالموت. فيتخيل السجين أن الانتحار وحده يمكن أن يوقف هذا الصخب الداخلي، أن يُخرسه إلى الأبد. في تلك اللحظات، لا يبدو الموت فناءً بل راحة، ولا يبدو الانتحار جريمة بل طريقاً إلى السـكون. وينزلق نحو صمتٍ أبدي، تاركاً خلفه ظلالًا تتناسل في الزنزانة، كأنها تذكير دائم بأن الوحدة الطويلة قد تفتح أحيانًا أبواب الجنون والموت معاً، وتروح تتصارع داخله صـورتان: صـورة الذات التي تقاوم، وصـورة أخرى تُغريه بالاستسلام. وتغدو الجدران شاهدة على معركة صامتة تدور بين إرادة البقاء ونزعة الفناء.

غير أن بعضهم ينجو بذكريات صغيرة تشده إلى الحياة: صوت أم، كركرات طفل، رائحة خبزٍ بعيدة أو ذكرى قبلة أولى.

لكن ثمة أشياء أخرى كانت تشد أزر مايك وتدفعه الى الحياة والعمل المحموم: التحدي الكبير، أحلام المجد، الانتصـار على هؤلاء الأعداء الشرسين الذين لا يعرف أغلبهم... وجدّه.. جده الذي لا يتأخر عنه في كل لحظات الضعف واليأس.

٦

بحكم الأمر الواقع وبفضل تسلسل المناصب بعد اختفاء مايك وماري وكيتي، أصبح ستيف ثورنفيلد المدير العملي المؤقّت للمؤسسة العملاقة. شيئاً فشيئاً غدا الآمر الناهي، صاحب القرار والكلمة الأخيرة، يوقّع ويأمر ويُطاع ويطلع على كل صغيرة وكبيرة.

قرر أولاً أن ينقل مقرّ عمله الى غرفة مايك. ولإضــــفاء مســـحة من الاحترام الشـكلي لزميله الغائب، وتحسـباً لأية مفاجآت غير ســارة، أمر بالإبقاء على مكتب مايك وكرســـيه في مكانهما واكتفى بتوفير مكتب وكرســـي إضـــافيين في الطرف الثاني من الغرفة الفســيحة. وزيادة في إظهار التفاني والإخلاص في العمل لم يكن يغادر إلا في ســاعة متأخرة من المســـاء بعد أن يصـــرف جميع موظفي المقر ومســـتخدميه مكتفيا ببضـعة حراس للبوابات. وهكذا تمكن من اسـتغلال وجوده ليمارس هوايته الأثيرة: التنقيـب في أســـرار الآخرين، الاطلاع على كـل أوراق العمـل ووثائقه والدخول الى الكومبيوتر الشـخصـي لمايك –ولم يكن فك تشـفيره بالأمر الصعب عليه.

لكنه لم يعثر على شـــيء محدد يفيد كلب صـــيد مثله، لا يجري وراء فريســـته امتثالاً لأسـياده فحسـب، بل حباً في الصـيد نفســه، شـوقاً الى التشـــفي من الطريدة التي حلم بها طويلاً وزاغت منه مرة بعد مرة ووقفت على التل البعيد تنظر إليه في سخرية وتحدٍ.

وقاده التنقيب أخيراً الى العثور على درج سري أحكم تمويهه.

ثمة دفتر صــغير بأوراق قديمة صــفراء بخط اليد تكثر فيها مواضــع الشطب والإضافة ربما تعود الى مرحلة الدراسة الثانوية. وقرأ ستيف:

"لطالما فُتن الإنســان بفكرة العودة إلى الماضـــي: لحظةٍ جميلة يريد اســتعادتها، أو خطأٍ فادح يتمنى لو لم يرتكبه. في الخيال العلمي، حُلمنا الأكبر هو "آلة الزمن" التي تُعيدنا إلى الوراء أو تقفز بنا إلى الأمام. لكن ماذا لو كان الطريق إلى الماضـي لا يمر بالسفر عبر الزمن أصـلًا، بل بطريقة مختلفة: أن نســتطيع إعادة مشــاهدة ما حدث، كما يُعاد عرض تسجيل فيديو، من دون أن نتدخل فيه أو نغير مجراه؟

هذه الفكرة لا تنتمي إلى الخيال المحض، بل تستند إلى أساس علمي متين: أن كل حدث في الكون يترك أثرًا في صورة موجات أو إشارات أو تغيرات دقيقة في البيئة. وإذا اســتطعنا يومًا أن نجمع هذه الموجات ونفك شيفرتها، ربما نتمكن من مشاهدة لحظة من الماضي كما وقعت بالفعل"

وشـــعر بنحلة الغيرة وهي تنهش قلبه فأخذ في تقليب الدفتر ســريعا، ليقرأ هنا وهناك قافزاً فوق السطور والصفحات:

"المبدأ البسيط هو: لا يوجد حدث بلا أثر"

"من هذه الزاوية، يمكن اعتبار الكون ســـجلًا هائلًا مفتوحًا، كل جزء منه يحمل معلومات عن لحظات ســابقة. فالصــوت الذي تكلمتَ به منذ دقائق لم يختفِ، بل تشــتت وتوزع على شــكل موجات ضــعيفة جدًا في الهواء. وصــورة وجهك قبل عشــر ســنوات ما زالت "مكتوبة" في فوتونات الضوء التي انعكست عنه وانطلقت في الفضاء"

"في الســفر عبر الزمن، نغيّر موقعنا داخل النســيج الزمني، فنعود أو

نتقدم. هذا يثير مفارقات منطقية مستحيلة (مثل قتل الجد قبل إنجاب الأب). أما في استرجاع الأحداث، فإننا نظل في الحاضر، لكننا نعيد قراءة الأثر الباقي من الماضي. لا مفارقات هنا، ولا قدرة على التدخل أو التغيير، فقط المشاهدة"

وتصاعدت غيرته، تحولت الى حقد مستعر. وأوشك أن يرمي الدفتر بعيداً، لكن الفضول دفعه الى مواصلة التقليب:

"الفارق بين الحلم والواقع هو: كيف نصل إلى هذه الآثار ونحوّلها من جديد إلى صورة مرئية ومسموعة؟"

"هذه الأمثلة تُظهر أن الفكرة ليست محض خيال، بل لها شواهد واقعية، وإن كانت محدودة"

"مع ذلك، ما يزال الباب مفتوحًا لنجاحات جزئية. يمكن أن نتخيل في المستقبل: أجهزة حساسة للغاية قادرة على التقاط بقايا الموجات الصوتية أو الكهرومغناطيسية في بيئة معينة وتحليلها لاستنتاج ما حدث قبل ثوانٍ أو دقائق. تطوير خوارزميات تعتمد على الذكاء الاصطناعي لإعادة بناء صورة تقريبية لحدثٍ من إشارات متناثرة وضعيفة جداً"

"بهذا، قد لا نصل أبداً إلى "آلة الزمن" بالمعنى التقليدي، لكننا قد نتمكن من بناء "شاشات ماضي" تعرض لنا مقاطع من أحداث فاتت"

"إذن، إعادة رؤية الماضي هي أيضًا نقاش فلسفي عن معنى الزمن وطبيعته: هل هو نهر يجري ولا يعود، أم سجل محفوظ نحتاج فقط إلى قارئ مناسب؟"

ولم يقوَ على الاستمرار في قراءة الصفحات التي تؤكد نبوغ

صـــــديقه/خصـــــمه المبكر وتَمرَّغ كبرياءه في الوحل، فألقي بالدفتر وهو يرتعش غضباً وكراهية. ولكن ما هذه الورقة التي سقطت منه؟ يبدو عقداً قانونياً من نوع ما:

عقد انتفاع واستغلال عقار تجاري مدى الحياة

الطرف الأول (المالك):

الاســـم الكامل:.. مايك إدوارد بلومبرغ ويُشـــار إليه في ما بعد بـ "الطرف الأول" أو "المالك"

الطرف الثاني (المنتفع):

الاسم الكامل: ديفيد أبراهام رامان، ويُشار إليه في ما بعد بـ "الطرف الثاني" أو "المنتفع"

بما أن الطرف الأول هو المالك الشـــرعي والقانوني للعقار التجاري المرقم...الكائن في ....والموصوف بما يلي: ...

وحيـث إن الطرف الثـاني يرغـب في الانتفـاع الكـامـل من العقـار واستثماره وتحصيل عوائده المالية،

وحيث وافق الطرف الأول على ذلك وفق الشروط المحددة أدناه،

فقد تم الاتفاق بين الطرفين على ما يلي:

١. يمنح الطرف الأول للطرف الثـاني حق الانتفـاع الكـامل بـالعقار التجاري الموصــوف أعلاه، ويشــمل ذلك الحق في اســتغلاله وتأجيره وتحصيل الإيجارات أو أي دخل ناتج عن استثماره.

٢. يكون هذا الحق مقيداً بمدة حياة الطرف الثـاني، وينتهي بوفاته تلقائياً دون حاجة إلى أي إجراء إضافي.

٣. يُستثنى من حق الانتفاع ما يلي:

متجر واحد يختاره الطرف الأول بنفسه من ضمن العقار.

القبو (السرداب) الذي يقع أسفل ذلك العقار.

ويحتفظ الطرف الأول وحده بحق الانتفاع الكامل بهما واستعمالهما دون منازعة أو مشاركة.

تجمّدت نظرات ستيف، واتّسعت عيناه وهو يتمتم:

- "يا إلهي... لا أصدّق عيني!"

واصل القراءة وهو يتصبب عرقاً:

المادة (٢): الملكية

يبقى العقار مملوكاً للطرف الأول ملكية تامة غير قابلة للتصرف من قِبل الطرف الثاني، ولا يترتب على هذا العقد أي نقل للملكية أو أي حق عيني آخر غير حق الانتفاع الممنوح للطرف الثاني بموجب هذا الاتفاق.

المادة (٣): مدة العقد

١. يبدأ مفعول هذا العقد من تاريخ توقيعه من قبل الطرفين.

٢. يستمر حق الانتفاع للطرف الثاني طوال فترة حياته

٣. ينقضي العقد تلقائيًا بوفاة الطرف الثاني، وتعود جميع الحقوق المتعلقة بالعقار، بما فيها حق الإدارة والاستغلال، إلى الطرف الأول أو من يخلفه قانونًا دون أي التزام تجاه ورثة الطرف الثاني.

المادة (٤)...

المادة (٥)...

المادة (٦).....

الخ .. الخ!"

ولطم ستيف جبينه بجمع كفه:

- "يا للغباء! كيف لم أفكر في هذا من قبل؟!"

وتذكر رؤيته لمايك في رأس ذلك الزقاق عدة مرات وتهربه عن بيان سبب وجوده هناك:

- "كنت في زيارة لصديق قديم، مجرد صديق قديم"
- "ألا أعرفه؟"
- "لا أعتقد.. وداعاً. أراك غداً"

الآن فقط فهم. طوى الورقة سريعاً ودسها في جيبه، ثم انطلق مسرعاً نحو فيليب، تتملكه نشوة الصيّاد الذي شمّ أخيراً رائحة الفريسة.

الفصل السادس

وصية النور

١

لم تحقق الاختبارات التي تلت غير القليل من التحسن. أوشك على اليأس والاستسلام والاعتراف بأن اختراعه هذا ليس سوى لعبة أطفال، مجرد جهاز لالتقاط الصور عن بعد. لكنه قرر أن يجري اختباراً حاسماً أخيراً. وكانت المفاجأة: لقد نجح في الاختبار العاشر في تفعيل خاصية الانتقال الزمني. وكان ذلك نجاحا مدوياً لم يتوقع في الحق حدوثه. قفز من كرسيه حتى كاد رأسه يرتطم بالسقف الواطئ وصاح:

- "لقد فعلتها!" وأخذ يلهث من الانفعال

كان قد انتقل بضعة أشهر الى الوراء، الى غرفته في الشركة. رأى ماري تدخل وتخرج وتجلس على كرسيه وترتب المنضدة ثم ترفع صورته وتمسحها وتتأملها طويلاً وتعيدها الى مكانها. تمتمت بشيء ما، لكن خاصية التقاط الصوت لم تكن قد تكاملت ليسمع ما تقول بوضوح. وقرّب الصورة: المفكرة المصورة على الجدار تشير الى الماضي!

وتقدم عدة أسابيع الى الأمام. رأى ستيف جالساً على كرسيه وقد رفع قدميه ووضعهما على سطح المكتب. ورآه وهو يعبث بكومبيوتره. ورأى أحد موظفيه الثقاة يدخل عليه ويقدم له أوراقاً ليوقعها. ورأى ستيف وهو يتقد غضباً. كان على ما يبدو يوبخ ذلك الموظف. وسمع الصوت أخيراً، سمع ستيف وهو يصيح به:

- "لا تجادلني، إنس ذلك المايك. أنا المسؤول عن كل شيء هنا. نفذ ما أقول لك وإلا أجلستك في بيتك"

- "أيها الحقير" تمتم مايك "أيها الحقير. أيها الخائن القذر!"

وأخلت الفرحة في قلبه مكانها لمزيج من الخيبة والغضب. لكنه تمالك نفســه. أمامه المزيد من الاختبارات النهائية والأوقات والأمكنة التي عليه أن يزورها.

انتقل الى المنزل الريفي في تلك الجزيرة النائية فرأى الصــــالة خالية وعلى الأرض بركة من دم متخثر وذلك الشال الأزرق الذي اشتراه لكيتي في اليونان.

انتقل الى شقته فرأى كل شيء مبعثراً.

انتقل الى منزل ماري فرأه مهجوراً.

ورأى ورأى ورأى. كانت الحقيقة تتكشــــف أمام عينيه بكل بشــــاعتها وساديتها: إنهم يريدون الجهاز، ويريدون رأسه.

وأدرك أنه لم يعد لديه ما يخسره.

وادرك أن نهايته هو قد دنت. ربما كانوا أكثر قرباً مما يظن.

ونســـي كل أحلام المجد التي طالما دغدغت مشـــاعره. لم يعد أمامه غير خيار وحيد: أن يهدم المعبد على رأسه ورؤوسهم!

٢

قبل أشـهر، وفي مكان ما في ذلك الشـرق الملفع بالسـواد، جلس عالم الفيزياء الجليل الذي طرح اسـمه عدة مرات لنيل جائزة نوبل، سـرح بفكره الى زوجتـه وأطفالـه الـذي تركهم هنـاك، في الوطن البـديـل الـذي منحـه الأمن والثقـة وفتح لـه أبواب المعرفـة. ثم عـاد الى غرفتـه الغـارقـة في فوضى كفوضى العازبين الهرمين وراح يخاطب نفسه:

- "ما الذي أعادني إلى هذه البلاد التي تأكل أبناءها؟ لماذا لم أبقَ هنـاك، حيـث درســـت، وتقلـدتُ أعلى المراتـب العلميـة ونلـت الاحترام والتقدير، وحيـث كنـتُ أتنفّس هواءً لا تشـــوبـه رائحـة الخوف ولا يلوّثـه الصـمت؟" كم مرة سـأطرح هذا السؤال على نفسـي لأكتشـف في كل مرة أنني أطرحـه لا لأجيب، بل لأؤكد عجزي عن الإجابـة. كنـت أظن أن الإنســـان يعود بدافع الحنين، لكن ما الذي يحنّ إليـه من عاش حياتـه مطارداً بالرقابة والخوف؟ ربما كنتُ، كما حذرني رفاقي الذين حاولوا ثنيي عن عزمي على العودة، مخدوعاً بفكرة الواجب، أو ربما أردتُ أن أصـدق أن الوطن بحاجة إليّ. كم يبدو هذا التعبير سخيفًا الآن... "الوطن بحاجة إليّ!"

- "الوطن، يا صـديقي الحالم" قال لي زميلي في القسـم، الذي سـبقني الى تلك البلاد "لا يحتاج إلى أحد، إنه يلتهم أبناءه في صـــمت ثم يرفع صورهم على صفحات الجرائد"

كانـت المرة الأولى التي عدتُ فيها في زمن الدكتاتور. دعوني أقولها

بوضـوح: لم أكن سـياسـياً ولا معارضـاً، كنت عالماً في الفيزياء، مهتماً بالأسـئلة عن الوجود والمادة والزمن. وجدت في مغتربي الاحترام والتقدير والتسـهيلات ومراكز الأبحاث المتقدمة والاهتمام بالبحث العلمي. هذا كل ما في الأمر.يفترض أن يكون هذا هو واقع الحال في بلاد غنية كبلادي، لكنهم لا يسمحون لك في بلادنا أن تكون عالماً فحسب؛ عليك أن تختار: إمّا أن تكون مع النظام أو ضده. لم أفهم ذلك إلا متأخراً، حين استُدعيت إلى مكتب أحد المسؤولين الكبار، وسألني بابتسامة باردة:

- "هل يمكنك أن تكتب شـيئاً يثبت علمياً أن إنجازات الرئيس أعادت الزمن إلى الوراء؟"
- "....."
- "أو أنها اختصرت الزمان وقفزت المراحل نحو المستقبل؟"

ابتسمتُ ساعتها، ظننتها نكتة، لكن عينيه كانت جادتين، وحازمتين.. ومهددتين!

لم أعرف مَن مِن زملائي نقل اليهم ثرثرتي المازحة عن وجود احتمال، ولو نظري، للانتقال عبر الزمن. يومها أدركت أن "إعادة كتابة التاريخ" التي كانوا يتحدثون عنها لم تكن مجازاً بل مشـروعاً فعلياً: إعادة صـياغة الماضي بحيث لا يبقى فيه إلا ظلّ واحد، ظلّ القائد.

لكي أكون صـــريحاً، لقد خفت. قلت فلأجاريهم. كتبت بعض الهراء فصـدقوه واحتفلوا به ونشـروه في صـفحات جرائدهم، بل إن الرئيس نفسـه أرسـل لي عن طريق سـكرتيره الأمي، شـكره وتقديره مع مبلغ مالي تافه. ظننت أن هذا كل شـيء، ثم شـعرت أن الأمر يتحول إلى تمثيلية عبثية. لم

أستطع أن أكون شاهد زور على علمٍ يُستخدم لتبرير الجنون. فغادرت ثانيةً.

في الخارج، وجدت نفسي من جديد. لم يكن سهلاً أن أبدأ من الصفر، لكن ثمة حرية غريبة في الغربة: لا أحد يعرفك، ولا أحد ينتظر منك شيئًا. درست بعمق، غصت في فلسفة الفيزياء، في العلاقة بين المراقِب والمراقَب، بين الحقيقة وما نعتقد أنه الحقيقة. تعلمت أن الكون ليس كما نراه، وأن الزمن ليس مستقيماً كما نتصوره، وأن المراقبة نفسها تُغيّر النتيجة.

كنت أعيش هناك بطمأنينة، لا أسمع صراخ مكبرات الصوت الزاعقة ليل نهار، ولا خطب السياسيين، ولا الساعات الطوال التي تسلخها القناة التلفزيونية الوحيدة في تمجيد الزعيم ومتابعة أخباره. كنت أطرب هناك لهمسات المختبرات والموسيقى الخافتة في المقاهي الصغيرة. ومع ذلك، كنتُ أشعر بشيءٍ ما يناديني من بعيد، ربما كان الإثم أو الحنين أو الغباء. لا أدري. عدتُ ثانية.

كانت البلاد قد تغيّرت ظاهريًا. لم يعد هناك طاغية واحد، بل آلاف الطغاة الصغار. كانت الفوضى قد لبست قناع الديمقراطية، وكل حزب يملك منابر، وكل منبر يملك كاهناً، وكل كاهن يملك جيشاً من الأتباع.

كنت أظن أني سأُدرّس وأبحث وأكتب بحرية. لكني سرعان ما اكتشفت أن الحرية التي يتحدثون عنها لا تتجاوز الشعارات. الجامعة نفسها كانت مرتعاً للأصوليين والمنتفعين. بعضهم جاء إلى قسم الفيزياء لا حباً بالعلم، بل ليثبت أن الكون خُلق كما ورد عن السلف الصالح حرفياً، وأن نظرية الكم مجرّد وهم غربي لإفساد العقيدة.

في أحد المؤتمرات، وقف أحدهم – شـيخ بلحية كثيفة، بالكاد يفهم ما يقول – واتهمني بأني أروّج للكفر. السبب؟ أني قلت إن الإعجاز العلمي في النصـوص الدينية ليس علماً، بل تأويل متأخر يحاول إثبات صـحة النص بعد وقوع الحدث. قلت لهم إن الإيمان لا يحتاج إلى برهان فيزيائي، وإن الله لا يمكن اختزاله في معادلة رياضـية أو نظرية قد تتغير غداً أو بعد غد؟

كانوا ينظرون إليّ كما لو أني جرّفتُ أرضهم المقدسة بيدي.

تدريجيًا، بدأت العزلة تحيط بي كضـبابٍ لزج. زملاء الأمس صـاروا يتجنبونني. بعضهم اكتفى بالصمت، وبعضهم كتب ضدي تقارير سرية. لم أكن أحتاج إلى مخبرٍ يراقبني، فقد صـار الخوف يسـكن الممرات والوجوه. حتى الطلبة الذين أحببتُهم صاروا يتحدثون عني همساً.

أحدهم قال لي يوماً بوقاحة:

- "أنت تقول إن الإنترنت يكفي لمعرفة الدين، أليس كذلك؟ إذن ما حاجتنا إلى العلماء والفقهاء؟"

أجبته بهدوء:

- "أنا لم أقل إننا لا نحتاجهم، قلت فقط إن المعرفة لم تعد حكرًا على أحد"

لكن الكلمة خرجت من فمي مثل تهمة. وفي اليوم التالي، كنت حديث القنوات الدينية التي لا تُحصـى: "العالم الملحد الذي يريد أن يُلغي دور العلماء وفضـلهم على الأمة!" كم كان الأمر سـخيفاً ومؤلماً في الوقت نفسه.

قبل أسابيع، نشرت مقالتي الأخيرة. كنت أظنها مجرد تأمل فلسفي في احتمالات المستقبل، لكن يبدو أن الناس هنا يخافون من المستقبل أكثر من خوفهم من الموت.

بوحي من حديث سابق مع الشاب العبقري الذي صار فيما بعد الاسم الأبرز في عالم التقنيات الرقمية، كتبت عن جهازٍ نظري قد يتيح للإنسان، يوماً ما، رؤية الماضي بالصوت والصورة. لم أقل إنه موجود، لم أقل إننا صنعناه، قلت فقط إن مبادئ الفيزياء الحديثة لا تستبعد إمكانية ذلك، وأن هذا الاكتشاف، إن حدث، سيهزّ كل المعتقدات الاجتماعية والدينية.

كنتُ أظن أن القارئ المثقف سيفهمها كافتراض فلسفي عن الذاكرة والزمن، لكن ما حدث كان أشبه بانفجار.

خرجت البيانات من الجهات الدينية: "تحدٍّ صارخ للدين، محاولة شيطانية لسرقة علم الغيب!"

وسرعان ما تبنّت وسائل الإعلام الحملة، وتحوّل اسمي إلى لعنة. حتى الذين كانوا يبتسمون لي في الممرات صاروا يشيحون بوجوههم، وكأن اللعنة ستصيبهم إن تبادلوا معي التحية.

في كل مساء، كنت أجلس في غرفتي الصغيرة أراجع ما كتبته في سنواتي الماضية، وأسأل نفسي: "هل كنتُ مخطئًا؟ هل تجاوزتُ الحد؟"

لكن ما هو الحد أصلًا؟ من يحدده؟ رجل الدين؟ السياسي؟ أم الخوف الذي يسكننا؟

في الخارج، كان العالم يتقدم بسرعة الضوء، وفي الداخل، نحن ما

زلنا نناقش إن كانت الأرض تدور أم لا.

أفكر أحياناً في زملائي هناك، أولئك الذين يناقشون احتمالات الأكوان المتعددة، بينما أنا هنا أتناقش مع أناسٍ ما زالوا ينكرون كروية الأرض ويرون في نزول الانســـان الى القمر مجرد فيديوات مفبركة. كم هو مرّ هذا الشـــعور بالعزلة الفكرية، كأنك كائن من زمن آخر ألقي به خطأ في هذا المكان.

...

البلاد متعبة منهَكة، ترزح تحت وطأة الشـــمس والذباب. حتى هواؤها صـــار يئنّ. الشـــوارع محروســـة بعيون لا تنام، والناس يســـيرون كأنهم يحتمون من أنفسهم.

أحسد أولئك الذين لا يفكرون، الذين يعيشون في يقينٍ صلب كالحجر. التفكير لعنة، والتساؤل جريمة.

أتذكر أبي، الرجل البسيط الذي كان يرى في العلم خلاصاً. كان يقول لي: "العلم نور، يا بنيّ"

لا أدري ماذا كان ســـيقول لو عاش اليوم. ربما ركن الى الصـــمت، فالنور الذي تحدّث عنه صار يحرق من يقترب منه.

أنا لســـت كافراً كما يقولون. لم أكن يوماً ضـــد الدين، بل ضـــد من يحتكره. كنـت أرى أن العلم والإيمـان يمكن أن يلتقيـا في نقطـةٍ من التواضع أمام المجهول.

لكنهم لا يريدون التواضـــع، يريدون اليقين المطلق، واليقين المطلق لا يقبل الحوار.

قلت لهم مرة في ندوة: "الكون ليس كتاباً مفتوحاً نقرأه بعيوننا، بل مرآة تُظهر لكلٍّ منا صورته الخاصة"

ضحك بعضهم، وسخر آخرون، لكني كنت أعني ما قلت.

الفيزياء علمٌ عن حدود المعرفة، والدين، كما أفهمه، إقرارٌ بحدود الإنسان. لماذا يخافون إذًا من أن نبحث عن الحقيقة؟

في البداية كانت تعليقاتٍ على الإنترنت. رسائل قصيرة مليئة بالشتائم. "مرتدّ، كافر، عميل". لم أعرها اهتماماً. ثم صار بعض الطلبة يكتبون على باب مكتبي عبارات مهددة ويرسمون سيوفاً متقاطعة.

ضحكت. ظننتها حماقة صبيان. لكن الحماقات الصغيرة، كما تعلّمت، هي بذور الكوارث الكبرى.

في أحد الأيام، وجدت سيارتي مشوهة، الزجاج محطّم، والمرايا مكسورة.

حين ذهبت إلى مركز الشرطة، نظر الضابط إليّ بازدراء وقال:

- "ربما أنت من أغضبت الناس بكلامك."

كان واضحاً أنه لا يريد أن يتخذ إجراءً. فعدتُ إلى بيتي وأنا أشعر أنني أغرق في مستنقعٍ بطيء، مستنقعٍ من الإهمال والشماتة الصامتة.

في مساءٍ خانقٍ، بينما كنت أراجع مسودة مقالٍ جديد عن حدود الملاحظة في الفيزياء الكمية، سمعت جرس الباب.

لم أكن أنتظر أحداً.

عندما فتحت، لم أرَ سوى مغلفٍ صغيرٍ على الأرض. لا اسم عليه ولا عنوان مرسل.

أغلقْت الباب وعدتُ إلى مكتبي وقلبي يخفق بشـــكل غامض. فتحت الظرف فوجدت فيه طلقةً واحدة، وورقة صغيرة كتب عليها بخطٍّ متوتر:

- "لكي تعرف أن الماضي لم يُكتَب إلا بالدم"

جلستُ صامتًا، أحدّق في الطلقة كما لو كانت مجسماً لجسيمٍ ذري

ما أبســطها! قطعة معدنية صــغيرة، لكنها قادرة على أن تغيّر مســار التاريخ الشخصي للإنسان.

ضــحكت. لا أدري لماذا. ربما لأن الخطر حين يصــبح واضــحاً يفقد جزءاً من رهبته.

فكّرت أن أبلغ الشرطة، ثم تذكّرت تجربتي السابقة معهم.

سيتهمونني بالجنون، أو سيقولون إنني أبحث عن الشهرة.

وفي النهاية، ســيُرمى الظرف في درجٍ صـــدئٍ إلى جوار عشـــرات الملفات المنسية.

ثم، من الذي سـيريد حمايتي؟ السـلطات نفسـها التي تتحالف علناً مع المهددين؟

لا، لن يفعلوا. إنهم يكرهونني أكثر منهم، لأن وجودي يـذكّرهم بمـا فقدوه: ضمير المعرفة.

وضـعت الظرف على المنضـدة، وجلسـت أمامه كما يجلس قاضٍ أمام قضيةٍ نهائية.

ما الذي يخيفني بالضبط؟ الموت؟

لقد تأملت الموت طويلاً في دراســـاتي عن الزمن. الموت ليس حدثاً منفصـــلاً، إنه مجرّد انتقالٍ من معادلةٍ إلى أخرى، من نظامٍ مغلقٍ إلى

نظامٍ أوسع.

نحن نعيش في وهمِ الزمن الخطيّ، لكن الحقيقة أوسع من إدراكنا.

حين يموت الإنسان، لا يفنى، بل يتحرر من قيد المراقبة.

هكذا على الأقل كنت أقول لطلابي وأنا أشرح معادلات شرودنغر عن احتمالية الوجود.

لكنّ الخوف الحقيقي ليس من الموت، بل من الطريقة التي نموت بها.

أن تُقتل لأنك فكّرت. أن تُسحق لأنك طرحت سؤالاً. أن يتحول قلمك إلى تهمة، ومقالك إلى رصاصة.

تأملت الطلقة مجدداً، وقلت لنفسي: ربما هي دعوة إلى التجربة الأخيرة.

...

أخرجتُ دفتري القديم، الذي بدأت أكتب فيه منذ عودتي الأخيرة.

كان فيه تأملات عن البلاد، وعن الناس الذين يحبّون الموت أكثر من الحياة.

كتبت ذات مرة:

"هنا، الذاكرة جماعية، لكن الذنب فردي. كلّنا نعرف الحقيقة، لكننا نتواطأ على إنكارها"

كنت أقصد ذلك حقًا. هذه البلاد تمحو ماضيها كل عقد، وتبدأ من الصفر كل مرة، لكنها لا تتعلم شيئاً.

الدكتاتور أمر بإعادة كتابة التاريخ، أما ورثته فقد أعادوا تمزيقه.

في الخارج، هناك تاريخ واحد يُقرأ من وجوه الناس.

أما هنا، فلكل جماعةٍ تاريخها الخاص، ولكل شــيخٍ نبيّه، ولكل حزبٍ ماضيه المقدّس.

البلاد التي تأكل أبناءها لا تفعل ذلك من جوع، بل من عادة.

عدت أقرأ مقالتي الأخيرة مرة أخرى.

كم بدت بريئة الآن!

كنت أتحدث عن فكرة الجهاز بوصفها انعكاساً فلسفياً للسؤال الأبدي:

"هل يمكننا أن نرى الحقيقة كما حدثت فعلًا؟"

لكنهم لم يروا فيها سوى تهديدٍ لعقائدهم، وكشفٍ لما أخفوه قروناً.

خافوا من الماضي أكثر من خِداع المستقبل.

كانت المقالة كلها تتلخص في جملة واحدةٍ لم أكتبها بحذافيرها:

"لو أمكننا أن نرى الماضي كما كان، سنضطر أن نواجه أنفسنا أولًا، لا أوهامنا"

ربما كانت تلك الجملة ســـبب نهايتي. فالناس لا يخافون من رؤية الماضي، بل من أن يُرَوا فيه كما هم.

الأنظمة، المجتمعات، الشعوب، صانعو القرارات، الإعلام، كلهم بنوا سلطتهم على الذاكرة الانتقائية. وهذا الجهاز – إن وُجد يوماً – سيجعل الأكاذيب شفافة.

لا أحد يريد أن يُعرّى بهذا الشكل.

٣

في صـــــباح اليوم التالي، ذهبت إلى الجامعة. كان الجو غريباً، كأن المدينة تتآمر على الصمت.

اســـتقبلني الحارس بنظرة متوجّســـة. وفي الممر الطويل المؤدي إلى مكتبي، لاحظت أن الأبواب موصـــدة، وأن بعض الزملاء خففوا خطواتهم حين رأوني.

على مكتبي وجدت رســالة إدارية تمنحني "إجازة مفتوحة حتى إشــعارٍ آخر".

لم أستغرب.

الجامعة التي لم تجرؤ على الدفاع عني حين شُتمت في الفضـائيات، لن تدافع عني الآن.

ابتسمت بصمت، وأغلقت الحاسوب، وخرجت دون أن أودّع أحداً.

أعرف أن بعضـــهم شـــعر بالارتياح لغيابي، كما يشـــعر الفئران حين يُطفأ الضوء.

بأســنانه الصــفراء، ابتســم أحدهم شــامتاً حين رآني. تذكرت كيف أنه وبخني لأنني لا أحضر الصلاة معهم جماعةً.

في المساء، جلست على الشرفة أراقب الأضواء المتقطعة للمدينة.

كان الهواء دافئًا ورطبًا، والسماء تميل إلى الغبار.

تذكرت أول مرة وقفتُ فيها هنا بعد عودتي من الخارج.

كنـت أرى المـدينـة مثـل كـائنٍ غـامضٍ نـائمٍ تحـت الرمـاد، ينتظر من

يوقظه.

اليوم، أدركت أنها لم تكن نائمة، بل كانت ميتة منذ زمن، ونحن فقط نتظاهر بالحياة فوقها.

رنّ الهاتف أكثر من مرة، لم أردّ.

كنت أعرف أنهم يريدون الاطمئنان على "الفضيحة" الجديدة.

في التلفزيون، يتحدث أحد الدعاة عنّي. قال إن أفكاري خطر على "العقيدة"، وإن أمثالي يجب أن يُمنعوا من التعليم.

لم أسمع الباقي. أغلقت الجهاز وجلست في الظلام.

الظلام نعمة أحيانًا؛ يُخفي العالم كي نسمع أنفسنا.

الخوف من جديد..

قلت لنفسي: ما الخوف إلا ظلّ الرغبة في البقاء؟

حين نفقد الرغبة في الاستمرار، لا يعود للخوف معنى.

أتذكر ما كتبه أحد الفلاسفة: "إن الموت، حين يُقبل عليه الإنسان بوعي، يصبح فعل حرية"

ربما بدأت لهذا السبب أشعر بشيءٍ يشبه السلام.

أنا لم أعد أملك شيئاً أخسره.

حتى سمعتي العلمية التي بنيتها بسنواتٍ طويلة تحوّلت إلى سلاحٍ ضدي.

لا أحد يريد الحقيقة، ولا أحد يحتملها.

الحقيقة في هذا البلد مثل مادة مشعة، لا يمكن لمسها دون أن تقتلك.

في اليوم التالي، وجدت رسالة أخرى على الباب، بلا طلقة هذه المرة،

لكنها مختومة بختمٍ أحمر غريب.

فتحتها بحذر. كانت قصيرة:

"لقد أُعطيناك الفرصة لتتوب. صمتُك لن يُنقذك"

أدركت أن اللعبة انتهت.

هم لا يريدون توبتي، بل يريدون مشهدها العلني، يريدونني راكعًا أمام ملثّمٍ نصف أمّي يقرأ عليّ بيان الندم.

لكنهم نسوا أني قضيت عمري أدرّس كيف أن المراقب يغيّر النتيجة.

لن أسمح لهم بأن يكونوا مراقبيّ الأخيرين.

قضيتُ الليل أفكر في احتمالات النهاية.

هل سيكسرون الباب؟ هل سيسكتونني بطلقة؟

أم سيجعلون من موتي عبرةً على الشاشات؟

كل الاحتمالات متشابهة.

لكنّ الخيار الوحيد الذي بقي لي هو أن أختار كيف أواجهها.

تذكّرت تجربةً أجريتها في شبابي عن تصادم الجسيمات: حين يندفع جسيمان نحو بعضهما بسرعة هائلة، لا يختفيان، بل يتحولان إلى طاقة.

ربما أنا أيضاً سأتبدّد في طاقةٍ ما، فكرةٍ تظلّ حيّة بعد موتي.

تساءلت: ماذا لو ظهر الجهاز؟

هل سيرى الناس ما يريدون رؤيته، أم ما حدث فعلاً؟

هل سيصدقون أعينهم أم ملقنيهم؟

ربما لن يصدقوا شيئًا على الإطلاق.

لكنّي واثق أن ذلك اليوم سيأتي.

لأن الحقيقة، مهما حوصرت، تعرف طريقها.

ربما سيُكمل آخرون الطريق، شبابٌ لم يعرفوا الخوف كما عرفناه.

سيتذكرون أن رجلاً بلا اسم كتب ذات يوم: "الماضي لا يموت، إنه ينتظر أن نراه"

...

قرب منتصف الليل، غسلت وجهي بالماء البارد، وارتديت قميصي الأبيض الذي أحب.

رتّبت أوراقي، وضعت نسخ مقالاتي في مغلّفات معنونة، وأطفأت الأنوار كلها إلا مصباحاً صغيراً فوق المكتب.

أخرجت الطلقة من الظرف، وضعتها على المنضدة أمامي.

لم تكن دعوة للموت، بل تذكرة بدوره في التجربة.

ربما لن يأتوا هذه الليلة. وربما هم يراقبونني الآن من بعيد.

لكن ذلك لم يعد يهمّ.

أنا الذي سأختار اللحظة.

كتبت على ورقة صغيرة:

"لا تبحثوا عن القاتل، لأنني اخترت الطريق بنفسي"

"لا أحد يقتل فكرة، فقط يسرّع ولادتها."

ثم جلستُ، أغمضت عينيّ، واستسلمت للصمت.

سمعت دقّات الساعة كأنها نبضُ الكون كلّه.

لم أكن أنتظر أحداً. كنتُ أنتظر اكتمال التجربة.

لم أنم حتى الفجر. قمت وتوضأت ووضعت إبريق الماء على الموقد،

شعرت بصفاء عجيب.

المدينة نائمة، والأصوات بعيدة.

فتحت النافذة، نسمةٌ خفيفة دخلت الغرفة، حملت معها رائحة التراب.

تذكرت وجه أمي في أول يومٍ ذهبتُ فيه إلى المدرسة، حين قالت لي: "إياك أن تخاف من السؤال"

ابتسمت.

كم كانت تلك الوصية بسيطة، وكم كلّفتني!

في الخارج، بدأ الأذان الأول يتسلل من بعيد.

تأملت السماء الرمادية، وتذكرت قولي لطلابي:

"الزمن ليس نهراً، بل محيطٌ بلا ضفاف. كل لحظةٍ فيه تحمل الماضي والمستقبل معاً"

رفعت رأسي نحو الضوء الخافت، وقلت لنفسي:

"لقد فهمت الآن... الماضي لا يُكشف إلا بالدم، نعم، لكن الدم هذه المرة دمي أنا، لا دمهم."

ثم ساد صمتٌ تام، كأن الكون نفسه انكمش في تلك الغرفة الصغيرة. ثم انفتح الباب. ورأيتُني وأنا أحلق في الفضاء البارد الفسيح!

٤

"أنا مايك بلومبرغ. أعلن للبشـرية جمعاء عن نجاح هذا الاختراع الذي سـيغير وجه الحياة في كوكبنا، الى الأفضـل كما آمل. وأعلم وأنا بكامل قواي العقلية إنني أتنازل طوعاً عن كل حقوقي المادية فيه. وتأكيداً لذلك ها أنا أقوم بتحميل ونشـــر الخرائط والتصـــاميم الكاملة للجهاز وكل التفاصـــيل المتعلقة بألية عمله على صـــفحات الانترنت، مجاناً ولكل البشر.

أيها الناس في كل مكان. هذا هو الكرونونيت، أضـــعه بين أيديكم، وأتمنى أن تحسنوا استعماله. هذه وصـيتي لكم فتمسكوا بها. لن يخدعكم أحد بعد اليوم. لن تكون أسرى بيد أحد. لقد تحررتم أخيراً من كل أكاذيب التاريخ. كونوا بخير وسعادة تحت نور الحقيقة الساطع!"

٥

تناهت إليه من وراء الباب الفولاذي أصوات إطلاق نار كثيف، ثم هز المكان انفجار عنيف اقتلع الباب من مكانه. وغمرت الغرفة أضواء كشافات قوية ورشقات متواصلة من الرصاص. وصاح أحدهم من مكبر للصوت:

- "مايك بلومبرغ. أنت مقبوض عليك"

لم يسمعوا رداً فدخلوا بحذر مصوبين بنادقهم الآلية. كان مايك هناك، ممدداً على الأرض، وسط الدخان والغبار، وخيّل الى أحدهم أنه رأى للحظة ظل شيخ عجوز يمسك بيده ويرتفع مع ظل القتيل الى السماء. وعندما انكشف الغبار تماماً تقدم المهاجمون نحو الفتى السابح في دمائه.

- "نعم. إنه هو!"

قال ستيف رداً على إيماءة فيليب المستفسرة.

كان راقداً على ظهره وعيناه مفتوحتان على اتساعهما وهما مثبتتان دون حراك على السقف. بدا أصغر من عمره بكثير. وارتسمت على وجهه مسحة من طمأنينة عميقة.

وعلى شاشات الكومبيوتر، على آلاف الشاشات في هذه الأرض ومضت كلمتان لا غير:

“files downloaded!”

٦

حين استيقظ العالم في صباح اليوم التالي، لم يعد كما كان في الليلة الماضية.

كأنّ الزمن نفسه تعثّر وسقط على وجهه.

الصحف، الفضائيات، المواقع الإخبارية، وصفحات التواصل الاجتماعي كانت كلّها تنطق باسمٍ واحد: الكرونونيت!

العناوين تصرخ من كل شاشة:

"اختراعٌ لم يعرف التاريخ مثله"

"يقال إنه تمكّن من رؤية الماضي كما كان، بالصوت والصورة، وأنه اخترق جدار الزمن كما تُخترق جدران الذاكرة في لحظة صفاءٍ خارقة"

"العلم يهزم الغيب!"

"آلة تكشف الماضي وتفجّر الحاضر!"

"من يملك الكرونونيت يملك الحقيقة!"

الناس في الشوارع بين مصدّقٍ ومكذّب، بين ذهولٍ وخوفٍ وفضولٍ لا يُطفأ.

الأسواق انهارت كما لو أن الاقتصاد نفسه فقد توازنه الزمني، والمستثمرون يسحبون أموالهم خوفًا من أن تُفضح أسرارهم القديمة.

وفي أكثر من مدينة، وردت أنباء عن انتحارات جماعية: سياسيون، رجال دين، فنانات، رجال أعمال كبار.

العالم وقف مذهولًا أمام سلسلة الأحداث كمن ينظر في مرآةٍ تتهشم

أمامه ببطء.

وفي المقاهي والمنازل والدوائر المغلقة، كان الســـؤال الأكبر يتردّد على ألسنة الجميع:

"أين اختفى مايك بلومبرغ؟ هل عبر إلى زمنٍ آخر؟"

في تلك الليلة، لم يجرؤ أحد على النوم.

بدا العالم كله معلّقًا بين زمنين، لا يعرف أيّهما الحقيقي.

لكنّ الأخبار المثيرة بدأت تتوالى بعد ساعات قليلة.

في منتصف النهار، أذاعت وكالات الأنباء بيانًا عاجلاً:

"العالم مايك بلومبرغ، مخترع الكرونونيت، قُتل في انفجارٍ داخل مختبرٍ سريٍّ تحت إحدى البنايات القديمة."

في المساء، تسربت أنباء جديدة أشدّ غرابة:

"لا معلومات عن زوجة بلومبرغ وطفليه."

"عمال النظافة يعثرون في أطراف المدينة على جثة امرأةٍ مشوّهةٍ بين أكوام النفايات قرب المستودعات الصناعية. لم يكن التعرف عليها سهلاً، لكنّ خاتمًا ذهبيًا في يدها حسم الشكوك: إنها ماري غودوين، المساعدة الســـابقة للمخترع، والمرأة التي كانت أقرب الناس إليه. قُتلت بوحشـــية، وطمســـت ملامح وجهها كما لو أن القاتل أراد أن يمحو وجودها من الذاكرة كما تُمحى معادلة من سبورة.

قيل إن أحد معارفها رآها قبل أيامٍ قليلة برفقة رجلين مجهولين في سيارةٍ سوداء، لكنّ التحقيقات توقفت عند هذا الحدّ."

ثم جاءت الضربة الصحفية الثالثة:

"العثور على ستيف ثورنفيلد، معاون المدير التنفيذي السابق للمؤسسة وصديق مايك القديم، مقتولًا في مكتبه.

طلقة واحدة في الرأس، أطلقت عن قربٍ شديد.

وعلى صدره وُجدت ورقة بيضاء فارغة.

أما المحققون فقد أشاروا إلى تفاصيلٍ صغيرة لم يلتفت إليها الإعلام:

آثارُ أقدام ملوّثةٍ بالدماء امتدت من المكتب حتى باب الممر، ثم اختفت.

وقال أحد الحراس إنه رأى قبل الحادث بدقائق رجلاً يخرج من المبنى يعرج بخطوةٍ ثقيلة، يرتدي معطفًا داكنًا ويخفي وجهه تحت قبعةٍ سوداء.

هكذا انتهى اليوم الذي غيّر العالم:

مخترعٌ مات في الانفجار، مساعدته مشوّهةٌ في مكبّ نفايات، والخائن مقتولٌ في مكتبه وورقة الانتقام على صدره، وعالمٌ بأسره واقفٌ بين الشكّ والإيمان، يتساءل بخوفٍ حقيقي:

- "هل بدأ الجهاز عمله أخيراً؟"

في تلك الليلة لم تنم المدن، ولم تُطفأ الشاشات.

كانت الأضـــواء ترتجف في نوافذ الأبراج العالية، والســـماء الرمادية تُطلّ صامتةً كأنها تنتظر هي الأخرى ما سيحدث في اليوم التالي؟

٧

لكن ما لم ينقله الرواة هو الحديث الذي جرى في المكتب ذي النوافذ الكبيرة التي تناطح السحاب:

- "هل فشلنا يا سيدي؟"
- "لا تقل هذا أيها الشـــــاب. هذه الكلمة لا وجود لها في قاموس جونسون"
- "لكننا خسرنا الحرب" قال فيليب في قنوط.
- "أبداً. لقد خسـرنا معركة واحدة. الآن فقط سـتبدأ الحرب الحقيقية, سنحصـي خسائرنا ونعيد تقييم الأمور ونعد خططاً جديدة للمستقبل. هيا أيها الشاب، لقد قلت لك سابقاً: لا وقت لدينا لنضيعه"
- "إنك لتعيد الثقة الى نفسي يا سيدي"

قال فيليب وقد اسـتعاد شـيئاً من رباطة جأشــه. وهمّ بمغادرة الغرفة، لكنه استدار فجأة.

- "سيدي، ثمة أمر أريد أن أستشيرك فيه"
- "...."
- "يبدو أن ذلك الستيف، مساعد مايك الذي دلنا على مخبئه، يحاول أن يمنح نفسه حجماً أكثر من حجمه. إنه يريد مساومتنا والتهديد بكشف بعض ما يعرف"
- "افعل ما تراه مناسباً. أنا لم أحبه أساساً. كنت أشم فيه رائحة تزكم الأنوف"

...

بعد ساعة لا غير اتصل فيليب بمديره:

- "سيدي. يبدو أن أحداً ما قد سبقني الى ما أمرت به"
- "حسناً فعل. فليذهب الى الجحيم!"

الفصل السابع

ماذا حدث غداً

١

أتساءل عما كان سيفعله أبي لو أنه عرف بأن ابنته ذات السنوات الخمس ستنجو – بصدفة غريبة – من تلك الجريمة المروعة التي أودت بزوجته وابنه؟ وبأنها ستكبر وتتزوج وتنجب وتشيخ دون أن تحتفظ في ذاكرتها بتفاصيل عن شكله غير تلك التي كانت تراها في التماثيل التي أقيمت له بعد اختفائه الغامض ذاك.

لقد بلغت الخامسة عشرة وهي لا تعرف وطناً غير هذه الجزيرة الصغيرة الهادئة في جنوب شرقي آسيا، ولا تعرف أباً وأماً غير هذين الفلاحين الأسمرين قصيري القامة اللذين لا تفارق الابتسامة وجهيهما.

- "الآن وقد زال كل احتمال لخطر يهدد حياتك، سنخبرك بالحقيقة كلها عن أبيك وأمك البيولوجيين"

إنها تتذكر ذلك الرجل بصورة شبحية ضاعت تفاصيلها: شاب أحمر الشعر وعطر برائحة جوز الهند ولحية خفيفة تدغدغ خدها يحملها ويلقيها في الهواء ثم يتلقفها ويغمرها بالقبلات.

وهي تتذكر كيف حملتها تلك السيدة التي غابت ملامحها عن ذاكرتها وقبلتها في عينها وأخرجتها من الشباك الواطئ المطل على الغابة وقالت لها بحزم:

- "اركضي. أركضي بكل سرعتك ولا تستديري الى الوراء. لا تخرجي من الغابة حتى آتي إليك"

لكنها لم تأت، لم تأت أبداً. وظلت هناك تبكي وترتجف حتى عثر عليها هذان الزوجان وحملاها الى كوخهما.

٢

لقد مر نصف قرن منذ أن أُعلن عن "الجهاز"، ذلك الشيء الغريب الذي وعد العالم بكشف كل ما مضى من أحداث، وبأن يُغلق باب النسيان إلى الأبد. لم أكن أعلم بأن هذا الرجل الأسطوري ليس سوى أبي. لقد زرت مراراً مخبأه الذي تحول الى متحف. كنت بصفتي الوريثة المالكة لهذا المكان أتمتع بحق الدخول اليه لوحدي في أيام العطلات. كان شيء ما يدفعني في كل مرة الى الاضطجاع على الأريكة القديمة الغريبة والتحديق في السقف الواطئ والاستماع الى تلك المقطوعات الموسيقية التي كان يفضلها أبي. لقد كان يعلم أن ما يصنعه سيهز العالم، ويخلق له أعداءً تتهدد مصالحهم بشدة بسبب قدرته على الإمساك بالماضي كله. لم يكن مخطئًا، فقد استُهدف في لحظة الاعلان، قُتل بلا رحمة، لكن اسمه لم يمت، بل صار خالداً، يُذكر في التماثيل والمناهج، وكانت مقاطع الكرونونيت نفسها شاهدة على موته البطولي، وعلى ولادة إرثه في آن واحد.

لقد تطور الكرونونيت نفسه، وصار استخدامه أكثر سهولة ورخصاً وموثوقية عندما أدخلت عليه تحسينات توقعها مايك نفسه مثل توسيع نطاق الرؤية وتعميقها بإظهار الأبعاد الثلاثية والربط بينها والعرض التزامني الجغرافي–الزماني والاعتماد على البصمة الوراثية للشخص أو سليل له في تحديد شخصيته ومتابعة زمانه ومكانه.

وبدت السنوات القليلة التي تلت كأنها محاولة لفهم العالم الجديد الذي

تركه. في البداية، كان الناس مذهولين: الحكومات، المحاكم، الصـــحف، حتى الأســـر الصـــغيرة كانت تتغير بين ليلة وضـــحاها. فجأة، لم يعد الماضـــي غامضـــاً، ولم تعد الذاكرة قابلة للتحوير. كنت ترى في وجوه الناس مزيجاً من الرهبة والانبهار، بعضـــهم يســـتقبل الحقيقة بامتنان، وبعضهم ينهار أمامها.

في تلك السنوات الأولى، صارت الفوضى هي القانون: الخصوصية تنهار، الأســـر تنهار، وتنهار معها الحكومات والإيديولوجيات والعقائد. صار القسَم شيئاً بالغ الندرة، صارت الأسرار مكشوفة. صارت الخيانة عارية في وضح الشمس. اختفى شيء اسمه الجريمة الغامضة والذكية، غدا كل فعل مسجلًا. كان الأمر كما لو أن الهواء نفسه أصبح شاهد عيان لا يتسلل اليه الوهم والنسيان والانحياز. كل خطوة تخطوها أقدامك يمكن للعالم برمته أن يشاهدها مرتين، مرة في الحاضر ومرة في الماضي الذي لم يعد ملكاً لك وحدك.

كنت أمشـــي في المدن التي صـــار فيها الجهاز جزءاً من الحياة اليومية. في الميادين والشـــوارع، على حيطان المقاهي، والمدارس وفي المنازل وفي المتاحف التي نجحت في كفاحها من أجل البقاء. أشـــاهد الناس يســـتخدمون الجهاز كما يســـتخدمون الهواتف: للتحقق من أحداث الماضـي، قريبها وبعيدها، لمعرفة صـدق الادعاءات من كذبها، لرؤية ما فعل أجدادهم، أو أزواجهم، أو حتى زملائهم في العمل قبل عقود. كان هناك شـــعور مشـــترك بالهيبة والخوف، شـــعور بأن تاريخ العالم صـــار أقصـر وأكثر وضـوحاً، لكنه أيضـاً أكثر قسوة وفظاظة في صـراحته. لم

يعد باستطاعة أحد أن يتظاهر بالنسيان، ولم يعد بالإمكان الهروب من أخطاء الماضي، فكل لحظة خطأ، كل كلمة كاذبة، كل انتهاك للثقة، صار معروفًا، مسجلًا، لا يرحم.

ومع مرور السنين، ظهرت الاختراعات المضادة، تلك الأجهزة التي حاولت أن تخلق مساحات مظللة، أو تحجب الماضي، أو تزيّفه. كانت في البداية مجرد محاولات بسيطة، مثل القفازات والأقنعة التي تُغطي الهوية على التسجيلات، أو الأجهزة الصغيرة التي تولّد ضوضاء في الماضي الرقمي لتشوّشه. ثم تطورت لتصبح أنظمة معقدة، قادرة على إنشاء "حقائق بديلة" للماضي: تعديل لحظات محددة، إخفاء أحداث كاملة، حتى تصنيع ماضٍ لم يكن موجوداً أصلًا. كنت أراقب هذه الاختراعات وهي تعرض في متاجر السلع المهربة وغير القانونية، في المدن الكبرى، وفي المنازل التي كانت تتحصن خلف جدران من الكتمان. كان الناس يستخدمونها لأسباب مختلفة: بعضهم لحماية خصوصيتهم، وبعضهم لتصحيح أخطاء ارتكبوها، وبعضهم، للأسف، للتلاعب بالآخرين، لابتزازهم أو إسقاطهم، أو لتغيير سجلات المنافسين والشركاء.

كنت أحياناً ألتقي مجموعات صغيرة في نوادي الجامعات وفي المقاهي شبه مهجورة، حيث يناقش الناس أخلاقيات استخدام الجهاز ومضاداته ومضادات مضاداته. كان الحوار، برغم هدوئه، محتدماً على الدوام:

- "كيف يمكن أن نثق في الماضي إذا أصبح قابلاً للتغيير؟" سأل

شـابٌ في الثلاثين من عمره، بمظهر هيبيي القرن العشـرين ويده ترتجف فوق فنجان القهوة.

- "الثقة لم تعد فيما حدث، بل فيما نختار أن نفعله الآن" أجابت رفيقته الأكبر منه عمراً وعيناها مليئتان بالمعرفة التي تمنحها التجربة.

- "لكن ماذا عن الحقائق الروحية؟ عن الله، عن الإيمان؟" تسـاءل آخر، بصوت خفيض ينم عن الحيرة، وكأنه يخشى أن يسمعه أحد.

سـادت لحظات صـمت طويلة، ثم اسـتمر النقاش: بعضـهم اعتبر أن الجهاز قضى على التعميمات والأوهام الدينية، وكشف عن طبيعة البشر كما هي؛ البعض الآخر وجد فيه وسـيلة لإثبات الحقيقة المطلقة للكتب المقدسـة أو للتاريخ الوطني، مما أعاد تأكيد بعض العقائد وأزال أخرى. كـان تـأثير الجهـاز على الإيمـان مـذهلاً: بعض النـاس فقدوا الثقـة في الطقوس، البعض الآخر وجد في الحقائق الجديدة دليلًا أقوى على وجود قوى كونية تتجاوز فهمهم. أيديولوجيات السـلطة السـياسـية، بالمثل، تعرضـت للضـغط؛ القوى التي بنت سلطتها على النسيان أو على روايات مزيفة تهاوت، بينما نشـأت جماعات تسـتخدم الأجهزة المضـادة لإعادة صـياغة التاريخ وفق رؤية أخلاقية أو قومية أو اجتماعية جديدة. ثم ظهرت دراسـات وعقدت مؤتمرات واحتدمت المناقشـات حول اخلاقيات وضوابط استخدامه

وتدخل المشرعون: ظهرت قوانين لحماية الأطفال من رؤية المحتويات العنيفة والإجرامية والبذيئة التي ملات تاريخ البشرية.

وبذلت جهود جبارة لمكافحة الإدمان على الكرونونيت.

وارتفعت منذ البداية آراء تتهم الكرونونيت بالتأثير السلبي على ذاكرة الأفراد.

وتمرغت ادعاءات أمم بأكملها بالوحل عندما تكشفت حقائق تاريخها.

وانتشر مصطلح الإرهاب الكرونونيتي.

وظهر مجانين ساديون يتلذذون بتوثيق جرائمهم البشعة بأجهزة تسجيل زمنية عصية على المسح والاختراق.

ونشأت في بعض المناطق الأكثر تخلفا في العالم أجيال تجد متعتها في نبش الفضائح وإدمان التجسس على الحياة الخاصة للآخرين.

وتغير تعريف مصطلح الثورة المعلوماتية.

وظهرت الآلاف من الاختراعات والابتكارات التي تدمج الكرونونيت مع التقنيات الحديثة الأخرى كالإنسان الآلي والذكاء الصناعي.

ودخلت الفلسفة المضمار وعاد الفلاسفة الى طرح المعضلة القديمة عن أصل الوجود والخلق على ضوء الكرونونيت.

واقتحم الكرونونيت ميدان السياحة والترفيه والإعلان والتسويق والتبشير والتسليح والتعليم والإجرام!

ولم يترك الفن فرصة لتوظيف هذه الثورة، فظهرت منذ الأيام الأولى روايات وأفلام ومسلسلات كوميدية وتراجيدية حاز البعض منها على شهرة واسعة مثل المسلسل الكوميدي الذي حقق أعلى المشاهدات (عائلة كرونو) الذي أضحك الناس كثيراً بمواقف يتدخل فيها إنسان آلي مجهز بالكرونونيت في حل (أو مفاقمة) خلافات عائلية بسيطة مثل من ترك الموقد مفتوحا أو أين وضعت المفاتيح أو دور من في غسل الأطباق!

لقد كانت الآثار الاجتماعية واضــحة: صــارت الأســر تحتاج إلى مواثيق وعهود جديدة لحماية حياتها الخاصة، وأصبحت علاقاتها الحميمة مشـوبة بالشـك دائماً، والصـداقات تتطلب اختبارات طويلة للثقة، لأن أي فعل قديم يمكن أن يُكشف بلا رحمة، وسرعان ما اختفت عبارات مثل "لا تكذب" أو "لا أتذكر" أو "لستُ السبب".

أما على المســتوى الســياســي، فقد تهاوت أكثر الحكومات، وتغيرت حدود ســـياســـية، وســـقط رؤوس وزعماء وايديولوجيات ومزاعم بحقوق تاريخية في الأرض والبحر والفضاء بعد كشف ملفات الماضي، وظهرت منظمات جديدة تدافع عن الحق في النسـيان، أو الحق في إعادة تشـكيل الذكريات، وظهرت قوانين دولية، لكنها غالباً ما كانت متأخرة، غير فعالة أمام انتشــار الأجهزة المضــادة، ولم تكن قادرة على وقف الســباق بين الكشف والتلاعب.

لكن الحياة لم تتوقف رغم ذلك: كنت أشـاهد مجتمعات صـغيرة تختبر التوازن بين الضوء والظل، وتعرفت خلال الأعوام الأولى على أسر كاملة استخدمت جهازاً مضـاداً لتغطية أحداث ماضية حساسة، لكنها قررت أن يكشـف كل شـيء يوم احتفالهم السـنوي بالأسـرة، كتقليد يحافظ على الثقة والمحبة. في حي آخر، مدرســون يســتخدمون الجهاز ليعلموا الأطفال التـاريخ بطريقة مباشـــرة، لكن بعض الأطفال، مدفوعين بـالفضـــول، اســتخدموا أجهزة مضــادة لتعديل ســرديات معينة، في لعب هادئ ولكنه يعكس صراع المستقبل المستمر بين الكشف والإخفاء.

٣

الليل يرخي سـدوله على المدينة، والأضـواء الإلكترونية تتوهج على وجوه المارة، على شاشات المقاهي، على واجهات البنوك والأبراج. أرى الأطفال الصـغار وهم يحاولون التعامل مع الجهاز، وهم يعرفون أن كل خطأ مسجل، كل حركة صـغيرة لا تهرب من مراقبة ما مضـى. أحيانًا أرى جدالاً بين شـابين: أحدهما يسـتخدم جهازاً مضـاداً لتعديل ماضٍ محرج، والآخر يحاول كشـف الحقيقة كاملة. الحديث حاد لكنه هادئ، كلماتهم تنساب كأمواج بين الفضول والخوف:

- "إذا عدّلنا الماضي، هل نبني عالماً أفضل، أم نضلّل أنفسنا؟"
- "لن نضلل أنفسنا، بل نخلق مساحة أمل، لحماية ما هو ثمين من خصوصيتنا"

هكذا يختلط الضـوء بالظل، الحقيقة بالسـراب، والخوف بالإبداع، في رقصـة أزلية بين من يريد أن يعرف كل شـيء ومن يريد أن يحمي ما يمكن أن يظل مخفياً. كنت أكتب كل هذه الملاحظات في دفتر صـغير ترك الناس اسـتعماله منذ زمن طويل ولهذا كان يثير فضـول من يراه، لكنني كنت أحبه، كنت أشعر بأن أبي يخاطبني من خلال صفحاته:

- "ابنتي، تذكري، القوة الحقيقية ليست في معرفة كل شيء، بل فيما يختار البشرية أن تفعله بهذه المعرفة"

كنت أبتسم وأنا أكتب، أعلم أن العالم قد تغير بلا رجعة، لكنني أؤمن أن الحب، والرحمة، والعدل، والقدرة على التسـامح، سـتظل نقاط الضـوء

التي لا يمكن لأي جهاز أو اختراع مضـــاد أن يطمســـها. كنت أشـــعر بوجوده في كل ذلك، في كل ضوء وظل، في كل كشف وإخفاء، في كل قلب بشريٍ يختار أن يكون إنسانياً رغم كل شيء.

تعودت، عندما أشـعر بالرغبة في التحرر من قيود المنزل والعمل، أن أقف على الجسر الخشبي القديم الذي أعيد تسميته باسم "مايك بلومبرغ". أتخيل أبي وهو يتأمل الماء الذي تنعكس عليه الأضواء ويده في يد أمي. أعتصر ذاكرتي دون اللجوء الى الكرونونيت وأحاول أن أتذكره وهو يتفاجأ فرحاً باقتحامي لمكتبه وهو منشـغل بمعادلاته ورسـومه وخرائطه، متشـبثًا بأمل أن البشر سيكونون جديرين بهذه الحقيقة، وأن المعرفة ستثمر خيراً. كنت أرى وجهه يبتســم بخفة في خيالي، وكأنه يعرف أنني ســأحاول أن أروي ما حدث، أن أشـــرح للعالم كيف غيّر "الجهاز" الحياة البشـــرية، وكيف جلب معه نوراً قد يعشي، لقوته، الأبصار. لقد أحب الناس ما كان يقدمه، لكنهم لم يدركوا مدى الضـريبة التي دفعها. كان اختراعه أقوى من أي ســـيف، لكنه ســـيف مزدوج: يعري الحقيقة ويكشـــف الخيانة، ينقذ الضحايا ويدمر المتآمرين.

وفي صـــمت المســـاء، كنت أتأمل كيف غيّر "الجهاز" العقائد: بعض الناس أصبحوا أكثر تشككًا في النصوص المقدسة، وابتعدوا عن الطقوس الميكانيكية، وركزوا على التجربة الإنســانية المباشــرة؛ آخرون وجدوا فيه دليلاً على التدبير الإلهي، على القدرة الغامضــة التي تسـمح فقط للبشـر بالتصـالح مع ماضـيهم. كنت أرى كيف أعادت بعض الجماعات تشكيل أيديولوجياتها بالكامل، ليس بالتهديد أو بالســلطة، بل بالقدرة على معرفة

كل شيء، ومعرفة من يمكن الوثوق به.

ثمة صوت يتردد صداه في كل بقعة من هذا العالم:

- "هل كان صواباً ما فعله مايك بلومبرغ؟"

ويأتي الجواب:

- "هل كانت تلك المرأة الأولى التي قطفت تفاحة المعرفة على صواب؟

هل كان الرجل الأول الذي أشعل أول شعلة من النار على حقّ؟"

وها أنا ذا أسير بين هذه الأسئلة والحقائق، بين الضوء والظل، بين كشف الماضي وإخفائه، وأشعر أن إرث أبي أكبر من أي آلة أو اختراع: إرثه كان في الشجاعة لتقديم الحقيقة للبشر، والثقة بأنهم سيختارون الخير بين جميع الخيارات. كنت أبتسم، وأدرك أن القوة الحقيقية ليست في معرفة كل شيء، بل في القدرة على أن نعيش، ونحب، ونغفر، حتى عندما نعرف ما لا يطيق أحد غيرنا معرفته.

٤

كلما تقدمتُ في السن تفاجأت بذكريات سحيقة تجمعني به. كلما مضت الأعوام ازداد حنيني إليه. في إحدى زياراتي للمتحف قررتُ، على غير عادتي، أن أبيت ليلتي فيه. لم يكن الأمر بدافع الحنين وحده، بل بشيءٍ غامضٍ في داخلي يشدّني إلى القبو كما يشدّ نداءُ البحر رجاله. أغلقت الأبواب الثقيلة، وانخفض صوت المدينة فوقي حتى صار أشبه بأنينٍ بعيد. تركت مصباحاً صغيراً فوق المنضدة المعدنية التي لا تزال تحمل آثار احتراقٍ قديمٍ وخدوشَ أدواتٍ مجهولة، ثم تمدّدت على الأريكة المتهالكة حيث كان أبي يستريح بين تجربتين، وأخذت أنظر الى السقف.

لم أكن يقظى، ولم أكن أحلم. كنت أنزل درجاتٍ من ضوءٍ لا من حجر، أحسستُ بأن جدران القبو تتنفس حولي ببطءٍ كصدرٍ عملاقٍ نائم. امتلأ الهواء بعطر رغوة حلاقة مسكر، غمر القبو ضياء أزرق شفيف مثل ضياء فجر صيفي. سمعت طنيناً خفيفاً يشبه نبضاً معدنيّاً، ثم ظهر هو أمامي، أبي، واقفاً عند الجهاز. كان ينظر في مكان ما من الفراغ، ولهذا لم ينتبه لوجودي.

كان يرتدي معطفاً أبيض، شعره الأحمر مسترسل على غير ما يظهر في الصور، لكن وجهه أكثر صفاءً مما تخيلتُه.

وخرجت من أعماق صدري، مثل شهقة حبست لعشرات السنين، كلمة واحدة:

- "أبي"

التفت في بطء. نظر إلي كما لو كان يتوقع وجودي، ابتسم لي، وتقدّم خطوةً واحدة. لم ألمح ظلّه على الأرض. وتمتم بصـــوتٍ هادئٍ يحمل ارتجاجاً غريباً بين الحاضر والماضي:

- "أخيراً عدتِ، يا صغيرتي. كنتُ أعرف أنك ستأتين".

- "أبي" همســتُ من جديد فاهتزّ الهواء بيننا. حاولتُ أن أقترب منه، لكن المسافة بيننا بدت ثابتة كأن الزمن نفسه يمنع اللقاء.

- "لا تخافي يا عصــفورتي.. هذا المكان ليس قبراً، إنه ذاكرة الزمن. كل ما جرى لا يموت، بل ينتظر من يراه بعين القلب".

أومأ بســبابته التي تومض بضــوء فســفوري أخضــر نحو الجهاز الصــامت فوق المنضــدة. وفجأةً بدأ يلمع بضــوءٍ متقطع، يعرض صــوراً متتابعة متداخلة: ماري تضــــع على مكتبه كوب قهوة وهي توبخه على تأخره، ســتيف يوقع أوراقاً بيدٍ مرتجفة، رجل يخفي وجهه تحت قبعة ثقيلة وهو يعرج خارجاً من غرفة نصــــف معتمة، امرأة تمســـك بطفلةٍ حمراء الشعر وتدفعها من نافذةٍ نحو الغابة.

أخذت الصــور تظهر وتختفي كأنها تتنفس، كأن الماضــي يُعيد نفســه أمامي. سمعت صوت أبي يردد من بعيد:

- "لم أصـــنع الكرونونيت لتخويف الناس، بل لتذكيرهم أنهم يكتبون التاريخ بأيديهم كل لحظة".

ثم ظهرت صــورته هو، يجلس على الكرســي، أمامه الجهاز في لحظة الانفجار. الضوء ازداد زرقة، حتى شعرت بحرارته على وجهي. صرخت:

- "أبي!"

استدار نحوي كما لو أنه يسمعني من وراء سُتُر الزمن. كان ينظر إليّ من وراء الغبار والدم اللذين يغطيان وجهه الشاحب. وتحدث الآن بصوت أكثر وضوحاً:

- "الزمن لا يفصلنا يا ابنتي... إنه يجمعنا بطرقٍ لم نفهمها بعد. يوماً ما ستعرفين أن الحقيقة لا تُرى بالعين، بل تُحَسُّ بالروح".

ثم خفّ الضوء شيئاً فشيئاً، وتقدّم نحوي حتى صرتُ أرى في عينيه بريقاً من حزنٍ دافئ. مدّ يده كمن يودّع، وقال بصوتٍ خافتٍ مملوءٍ بالعزم:

- "هذه هي وصيتي، يا ابنتي: إذا صار النور سيفاً، فاجعليه رحمة. وإن رأيتِ في الحقيقة قسوةً، فذكّري الناس أن المعرفة لا تكتمل إلا بالرحمة. لا تكرري خطئي... كنتُ أظن أن النور وحده يكفي، لكن النور بلا قلبٍ يُعمينا".

ضحك فجأة وانحنى بخفةٍ ليقبلني كما كان يفعل في طفولتي حين يهمّ بتوديعي إلى المدرسة. ثم تراجع خطوةً واحدة، وذابت هيئته في الضوء الذي ازداد سطوعاً حتى ملأ القبو كله. سمعت صوته للمرة الأخيرة، كأنه يأتي من عمق الأزمنة:

- "الحقيقة لا تموت يا ابنتي... إنها فقط تغيّر شكلها".

شعرت بضغط شفاهه على عيني، ففتحتها: كانت خيوط الفجر تتسلل من فتحات التهوية. وجدت نفسي على الأريكة، تغطيني بطانية ناعمة سميكة، ويد ما قد أطفأت المصباح الصغير الذي تركتُه مضاءً. وعلى سطح المنضدة، فوق طبقة الغبار الخفيف، كانت هناك آثار يد كأنها مرت عليها منذ لحظات.

٥

أنا أعيش منذ ســـنوات طوال في هذا المنزل القديم في الضـــواحي. أحفادي يعشـــقون اللعب في العلية. أحدهم يزداد براعة في النجارة. أقوم أنا بالاعتناء بالحديقة الصـــغيرة وشـــجيرات الكرم الذهبي القديمة. لقد صـــبغنا البيت قبل شـــهور. نجلس أحياناً في ظهيرات الصـــيف تحت الســـقيفة الكبيرة التي تظلل مدخل البيت. نثرثر ونأكل العنب والتوت، ويشرب زوجي قدحاً أو قدحين من نبيذ القبو الذي لا نعرف تاريخ تعتيقه، رغم أن زوجي اقترح على مراراً أن نســـتخدم الكرونونيت لنعرف ذلك، لكنني كنـت أرفض ذلـك: بعض الأمور تكون أجمـل حين يحيطهـا الغموض! وحين ندخل البيت في ســاعات الغروب ســيكون أول شـــيء يواجهنا هو تلك الصورة القديمة لفتى جميل، ربما في الخامسة من عمره، وهو يعتلي كتفي رجل طويل القامة بلحية فضـية مشـذبة وشـعر منسـرح مربوط على شكل ذيل حصـان، وهما يضـحكان بقوة فلا يملك من يراهما إلا أن يبتسم دون وعي منه.

ولا شيء آخر على هذا الجدار الوحيد الذي ظل لسبب غامض ساطع البياض دون أن تمتد إليه الرطوبة أو تعشـــعش فيه العناكب أو يلمســـه دهان لعشـرات السـنين غير وسـام صـغير معلق تحت الصـورة. وسـام نقشت عليه كلمتان:

الحقيقة تنتصر!

النهاية

عن الكاتب

ماجد الحيدر

قاص وشاعر ومترجم

ولد في بغداد عام ١٩٦٠

تخرج من كلية طب الأسنان/ بغداد ١٩٨٤

يكتب ويترجم بالعربية والكردية والانكليزية.

من أعماله المنشورة :

١. النهار الأخير (مجموعة شعرية) – بغداد ٢٠٠٠
٢. في ظل ليمونة (مجموعة قصصية) – بغداد ٢٠٠١
٣. ماذا يأكل الأغنياء (مجموعة قصصية) – بغداد ٢٠٠٢
٤. مزامير راكوم الدهماء وقصائد أخرى (مجموعة شعرية) – بغداد ٢٠٠٢
٥. نشيد الحرية وقصائد أخرى لشيللي(ترجمة) –دار الشؤون الثقافية– بغداد٢٠٠٤
٦. الإيدز بين المناعة والفيروس– دار الشؤون الثقافية–بغداد ٢٠٠٤
٧. عبور الحاجز–قصائد من الشعر العالمي (ترجمة) – دار المأمون– بغداد ٢٠٠٧
٨. ناجون بالمصادفة (مجموعة شعرية) – دار سبيريز–دهوك ٢٠٠٩
٩. ضحك كالبكاء (كتابات ساخرة) – منشورات ملتقى الأهالي–بغداد– ٢٠١٠

١٠. الثلج والنار والأغنيات–مختارات من شعر مؤيد طيب (ترجمة) – دار الثقافة الكردية–بغداد ٢٠١٠

١١. مالاني (قصص قصيرة بالكردية) – منشورات اتحاد الأدباء الكرد–دهوك ٢٠١٢

12. The Psalms of Rakoom the Black and Other Poems–Proclaim Press–Pittsburgh–P.A.–USA

13. Yes, It's Me– Selected Poems–Union of Kurd Writers–Duhok–2014

١٤. في الذكرى السنوية لرحيلي (قصص قصيرة) – وزارة الثقافة – بغداد–٢٠١٤

١٥. غلطة من هذه؟ (مجموعة شعرية) – مطبعة جامعة دهوك–دهوك ٢٠١٥

١٦. ستأخذنا الريح– مائة قصيدة وقصيدة من الشعر النسوي العالمي (ترجمة)–الهيئة السورية للكتاب–دمشق ٢٠١٦

١٧. الملاك الألثغ الصغير (قصص) – دار أمل الجديدة – دمشق ٢٠١٦

١٨. مؤيد طيب، قصائد مختارة (ترجمة) – دار ومكتبة جزيري –دهوك ٢٠١٦

١٩. يهوداعميخاي–الله شفيق بأطفال الروضة وقصائد أخريات ليهودا عميخاي (ترجمة)– دار ألكا– بلجيكا ٢٠١٨

٢٠. كفّ عني يا فيثاغورس (شعر) – دار سبيريز للطباعة والنشر – دهوك.٢٠١٩

٢١. لا ريح تقلني، لا أرض تحملني (شعر كردي مترجم) – دار الضفاف–عمان ٢٠٢٠

٢٢. أمي تذهب الى الجنة، مختارات من شـــعر قوبادي جليزاده، شـــعر كردي مترجم، السليمانية ٢٠٢١.
٢٣. حكايات الموقد الخشـــبي، قصـــص وحكايات من الفولكلور الكردي، معهد التراث الكردي، دهوك ٢٠٢١.
٢٤. بلاد تخاف المطر، مجموعة شـعرية، منشـورات الاتحاد العام للأدباء والكتاب، بغداد ٢٠٢٢.
٢٥. بنسـيون الربوة العالية (قصـــص قصـــيرة مترجمة عن الكردية للقاص اسماعيل هاجاني)، دار الثقافة والنشر الكردية، بغداد ٢٠٢٢.
٢٦. أسـطورة الخلق- قصـــص وأسـاطير عالمية – دار المأمون للترجمة والنشر- بغداد ٢٠٢٢
٢٧. العنب المر-قصـــص من بلاد الكرد (ترجمة) - دار الثقافة والنشـــر الكوردية-٢٠٢٣
٢٨. عصا هارون- رواية د. هـ. لورانس (ترجمة) – دار المدى ٢٠٢٥.
٢٩. كرســـي في الثلج (مختارات من شـــعر ماجد الحيدر) ترجمها الى الكوردية د. عارف حيتو-دهوك ٢٠٢٥
٣٠. الغرانيق تحلق جنوبا-قصـــص قصـــيرة من الأدب العالمي (ترجمة)- منشورات الاتحاد العام للأدباء والكتاب-بغداد ٢٠٢٥

إن مصالحنا كلنا تتعرض لخطر جسيم. تخيلوا ماذا سيحدث لو وصل هذا الاختراع الى أيدي كل الناس، غنيهم وفقيرهم، صغيرهم وكبيرهم. إن السياسة لا معنى لها دون تاريخ، والأديان لا معنى لها دون تاريخ، وجميع الفلسفات والمعتقدات والتقاليد والايديولوجيات والآداب والفنون والعلوم والسيكولوجيات الجمعية وكل النشاطات البشرية (بضمنها التاريخ نفسه) لا معنى لها إن فقدت تاريخها! ونحن، لا غيرنا، من صنع ويصنع التاريخ. وكنا، وسنظل، نفعل ذلك انطلاقا من حرصنا على أن نخدم مصالحنا.. كلا يا سيدي، لا تقل إننا خدمنا بهذا البشرية، لقد خدمنا أنفسنا أولا، ولا بأس في أن تستفيد الجماهير بشكل عرضي. وهذا ما حدث: إنهم سعداء بتاريخهم، بحروبهم، بأمجادهم، بقديسيهم، بشهدائهم، بأبطالهم. وهم مستعدون لإراقة بحار من الدماء كي لا يُحرموا من هذه السعادة!

ISBN 978-9933-744-29-8
9 789933 744298

أمل الجديدة
طباعة - نشر - توزيع